١٩٠

www.rewity.com

HARLEQUIN

روايات احلام

عروس الظل

لي ويلكنسون

marmoria5555

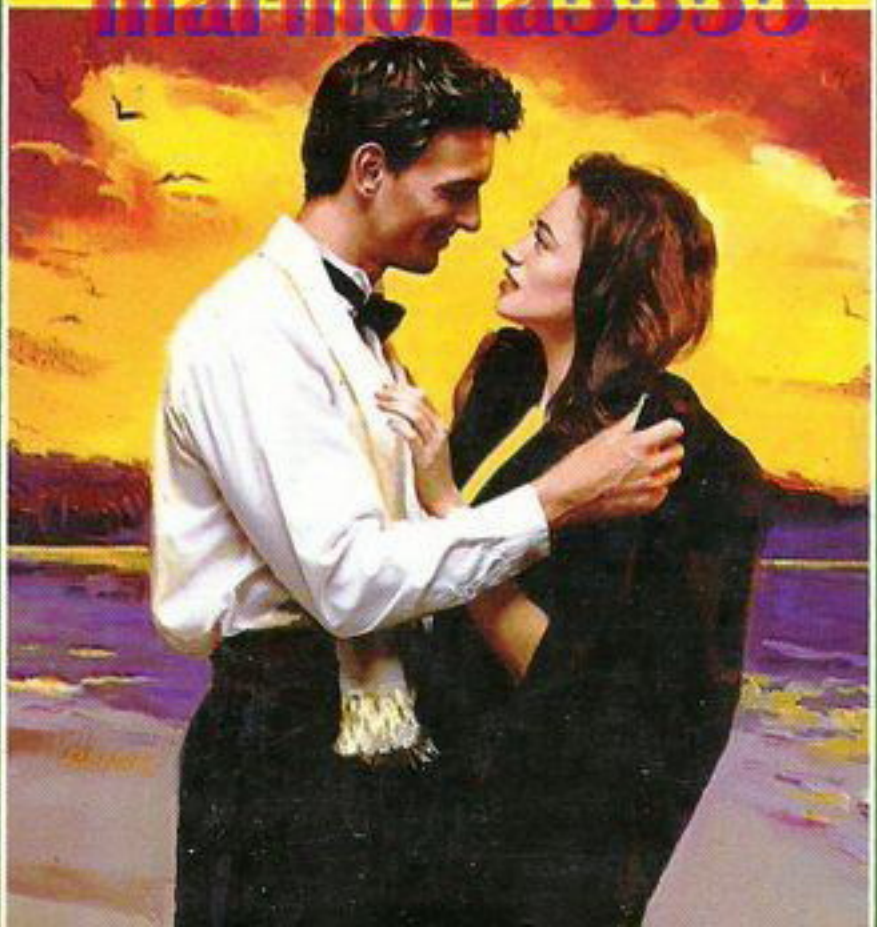

www.rewity.com

عـــروس الظـــل

لي ويلكنسون

marmoria5555

نفت اليـزابيت نفـسـهـا إلى الظل، وقـررت أن تـعـيش في الخفاء كانعكاس صورة في المرآة، من المستحيل التقاطها... بعد أن اكتشفت أن حبيبها خدعها، تحول العالم زيفاً ولم يعد لديها إلا الهرب فغيّرت اسمها وشكلها، واختفت...

... بعـد خـمس سنوات التقت كين، وعـاد الماضي فـجـأة... رؤيتـه خطفت منها الأنفـاس وجـعلتـها مليـئـة بالأشـواق الحلوة المرّة التي اعتادتها معه.

ولكن هو... يبـدو أنه لم يعـرفـهـا... هل هذا مـعـقـول؟ ألا يمكن أن تكون هذه لعبة منه؟

... عليـها أن تجاريه في لعبتـه كي تعـرف... ولكن إلى أي حد؟

لي ويلكنسون

تعيش لي ويلكنسون مع زوجها في منزل ريفي مشيد من الحجر، يعود تاريخ بنائه إلى ثلاثماية سنة خلت، في قرية (ديربيشير)، التي غالباً ما تعزلها الثلوج شتاء. يتمتعان معاً بالسفر ومؤخراً قاما بالتعاون مع ابنتهما وصهرهما برحلة حول العالم دامت سنة كاملة دون انقطاع. من هواياتها القراءة والاهتمام بالحديقة وإقامة حفلات الشواء المفاجئة لعائلتها وأصدقائها.

www.rewity.com
marmora525

١ ـ معركة بين عملاقين

كانت اليزابيث تدرك أن لا قدرة لها على المنافسة في مناسبة متألقة كهذه، لذلك اختارت البساطة... ثوب كوكتيل داكن الزرقة، وحذاء من جلد الشامواه. ثم رفعت شعرها الأسود الطويل بشكل «شينيون» أنيق.

لم تتزيَّ بأية مجوهرات، ما عدا ساعة في معصمها وقرطين في أذنيها من الفضة واللؤلؤ بشكل عروس البحر.. كانا قديمين وفي غاية الجمال.

وعندما قرع الجرس، كانت جاهزة... لبست معطف الفراء الرمادي اللون، وحملت حقيبتها، ثم فتحت باب كوخها الصغير وابتسمت للرجل الطويل المتين البنية الذي كان يرتدي بذلة السهرة.

أحنى ريتشارد بومونت رأسه يطبع قبلة على وجنتها: تبدين جميلة كعادتك دوماً.

كان صوته واضحاً مهذباً، ووجهه الأرستقراطي ساحراً جداً.

كان مساء ذلك اليوم من تشرين الثاني معتماً رطباً ملبداً بالغيوم، وبجانب باب الكوخ الأسود شجرة ورد أصفر مزهرة.

سألته وهو يساعدها على الصعود إلى سيارة الأسرة الليموزين: متى يبدأ البيع؟

ـ بعد التاسعة والنصف، فهناك مجموعة خاصة صغيرة من الأحجار الكريمة معروضة للبيع، لن يمضي وقت طويل حتى ينتهي المزاد.

كان ريتشارد ثرياً وعاشقاً للأشياء الجميلة، يجمع الأحجار الكريمة كما يجمع بعض الرجال طوابع البريد.

سألته والسيارة تقلع متجهة نحو حديقة هايد بارك العامة: هل تريد دخول المزاد لشراء شيء معيّن؟

لمعت عيناه حماسة: «طبعاً! ماسة ڤان هامل».

ـ هل تتوقع منافسة شديدة؟

ـ المدعوون نخبة قليلة لكنني لن أتفاجأ إن حضر الكثيرون.

ـ لكنك ستحصل عليها.

أجاب بثقة بالغة وهو يبتسم لمجرد التفكير بالهزيمة: آه، نعم، سأحصل عليها، ليس حجمها هو ما يميزها بل روعة تكوينها الذي لا عيب فيه. فضلاً عن أنها ستشكل خاتم زواج منقطع النظير.

أضاف الجملة الأخيرة ببساطة وعفوية جعلتها تطرف بعينيها.

ـ يبدو عليك الدهشة!

شعرت في الآونة الأخيرة أن علاقتهما تصبح جدّية. لكنها كانت مترددة في اتخاذ قرارها، وهي لا تعرف الآن ما إذا كان عليها أن تشعر بالسرور أو القلق.

لم يكن ريتشارد من النوع المتهوّر، ولأنه يراها مترددة لم يشأ الضغط عليها وفضل الانتظار، متظاهراً بأنه لا يريد سوى صحبتها حتى هذه اللحظة.

كانا يقفان عند الإشارة الضوئية، فأخذ يمعن النظر في جانب وجهها على ضوء مصابيح الشارع: الأهداب السوداء الكثيفة، الأنف المستقيم، استدارة فمها الجميلة:

ـ من المؤكد أنك تعلمين أنني أحبك وأريد الزواج بك.

رغم علمها بأنه كان ينتظر منها جواباً على إعلانه المفاجىء، إلا أنها بقيت صامتة بينما أفكارها في دوّامة.

كان الولد الوحيد لوالده البارون، وعلى قدر كبير من الوسامة

والسحر والتهذيب ورقة المشاعر، كما أهّله ذكاؤه وحنكته في أسواق المال العالمية ليجمع ثروة خاصة به، ويكسب احتراماً كبيراً في وسط رجال الأعمال.

أما هي فكانت في السادسة والعشرين من عمرها، فإذا أضاعت هذه الفرصة فلن تجد زوجاً مثله. فهي تريد بيتاً وأولاداً وهي ما تزال شابة.

عاد يقول بعد لحظة بصوت هادىء: إذا كنت موافقة على الزواج، أرى أن نذهب، بعد انتهاء المزاد، إلى شقتي الخاصة.

يملك ريتشارد إلى جانب منزل والديه الفخم، جناحاً خاصاً به في فندق «باركلين».

كان قد أوضح لها أنه إذا قبل مؤقتاً بعلاقة بريئة معها، إلا أنه لا ينوي الاستمرار في ذلك. وها هو الوقت قد حان الآن لتتخذ قرارها.

ماذا عليها أن تعمل إذن؟ لقد مضت اكثر من خمس سنوات على تحطم حياتها، وهي الآن مولعة بريتشارد، وواثقة من أن بإمكانها نسيان الماضي والبدء بحياة أخرى، والموافقة على الزواج به.

عاد يقول بإصرار: ماذا قررت عزيزتي؟

التفتت إليه بعينيها السوداوين الصافيتين، وقالت بثقة: نعم. أريد ذلك.

أمسك بيدها وقد بدت على فمه ابتسامة انتصار صغيرة. وعندما انطلقت السيارة مجدداً، قال: لا داعي لخطوبة طويلة. هل توافقين على أن يكون الزفاف في الربيع؟

تركا الطريق الرئيسي لينعطفا إلى «قاعة ويلهم» حيث يقام المزاد وتشعّ الأضواء.

أقيمت القاعة في قصر صغير رائع الجمال، وعند البوابة الحديدية العالية، وقف شرطي ألقى نظرة على بطاقة الدعوة المذهبة، وأشار إليهما بالدخول.

قال ريتشارد للسائق: لا تنتظرنا سميدز سنعود في تاكسي.

عندما أصبحا في الردهة المكسوة أرضها بالرخام أخذ خادم منها معطفها، وأقبل المضيف ذو الشعر الفضي يلقي عليهما التحية.

انضما إلى بقية الضيوف الذين حضروا بأبهى حلة في قاعة الطعام المضاءة بالثريات. قدمها ريتشارد إلى عدد من معارفه، ثم أشار لها إلى عدد من رجال الأمن في ثياب مدنية قد اختلطوا بالحضور.

تناولا الطعام الذي أعدّ في بوفيه ممتاز. كان مرافقها يبدو كعادته هادئاً مسترخياً، لكنها كانت تحس أنه يخفي تحت هذا القناع الهادىء، حماسة وشعوراً بالإثارة يغليان في نفسه.

مع اقتراب الساعة التاسعة والنصف دخل الجميع إلى قاعة المزاد، وما لبث أن ارتقى المنبر رجل نحيل أصلع هو «الدلال» عارض المبيعات الذي قرع المنضدة بمطرقته، ثم ابتدأ المزاد.

عرضت في البداية بعض الأحجار النادرة لكن ريتشارد لم يظهر اهتماماً بها، إلى أن وصل إلى الحجر الأخير.

تنحنح الدلاّل، ثم أعلن قائلاً: آخر المعروض هو ماسة من النخب الأول معروفة باسم «قان هامل».

مضى يدلي بتفاصيل دقيقة عن أصل الماسة، ثم قال: «هل لي أن أفتح المزاد بمئتين وخمسين ألف جنيه؟».

تقدمت المزايدة بحذر، حيث كان بعض المزايدين يحاول تقييم قوة خصمه. أما ريتشارد فقد أخذ يراقب منتظراً، وقد توترت يداه في حجره. ولم ينضم إلى المزايدين إلا بعد أن بلغ الثمن ثلاثمائة وخمسين ألفاً.

انسحب اثنان من المزايدين بسرعة، تاركين المجال لريتشارد وسيدة في منتصف العمر.

كانت نار المزاد تشتعل كلما رفعت يدها، تتشبث بموقفها. وإذا بالثمن يرتفع خمسين ألفاً أخرى، علامة الهزيمة.

وأعلن الدلاّل وهو يرفع مطرقته للمرة الثالثة: أربعمئة ألف جنيه.

تمتم ريتشارد راضياً، وابتسم لأليزابيت التي بادلته ابتسامته.

لكن نظرات الدلاّل انتقلت إلى آخر القاعة وهو يرفع حاجبيه متفهماً، ثم يومىء برأسه معلناً: أربعمائة وخمسون ألفاً.

سرت بين المتفرجين همهمة إثارة. حتى الآن، كان المزايدون يرفعون الثمن خمسة أو عشرة آلاف جنيه كل مرة، لكن هذا القادم الجديد رفعه خمسين ألفاً دفعة واحدة... وشعرت اليزبيث بالدوار.

بدا الذهول لحظة على ريتشارد لكن سرعان ما التمعت عيناه ببريق المعركة، ثم بهدوء، رفع الثمن بنفس المقدار.

كرّر الدلاّل الرقم وهو ينظر إلى المنافس الآخر الذي استجاب على الفور.

عضت اليزابيث شفتها، كانت ترجو أن يكتفي ذلك المزايد الجديد بضربته هذه، لكن يبدو أن الأمر ليس كذلك.

رفع ريتشارد الثمن خمسين ألفاً أخرى، ثم قال بصوت منخفض:

ـ أيمكنك أن تري من هو الذي ينافسني؟

التفتت إلى الخلف تسترق النظر بحذر، وإذا بها ترى رجلاً يلبس بذلة سهرة بالغة الأناقة وهو يستند إلى جدار بعيد دون اكتراث. كان ينظر إلى ناحية أخرى، لكن الشموخ المتغطرس لذلك الرأس الأسود الشعر والوقفة المسترخية لم يكونا غريبين عليها.

احتبست أنفاسها وتوقف قلبها عن الخفقات، كلا.. لا يمكن أن يكون هذا «كين»، هذا غير ممكن!

تحرك قليلاً ما جعلها ترى جانب وجهه الشبيه بوجه الصقر، تراه الآن بوضوح تام.

آه! يا إلهي، إنه هو! لا يمكنها أن تخطىء ذلك الوجه البارز الملامح.. وشعرت بالدوار وكاد يغمى عليها وبينما سمّر الذهول عينيها عليه، كان قد رفع المزايدة مرة أخرى بإشارة خفيفة من سبابته.

حتى ذلك الحين، لم يخطر لها أن يخسر ريتشارد المزاد، لكنها أدركت الآن أنها معركة بين عملاقين.

www.rewity.com

خشيت أن يلفت تحديقها إليه انتباهه، فحوّلت عينيها عنه وتقدمت إلى الأمام.

كان المزاد قد وصل إلى سبعمائة ألف.

مضت فترة هدوء قصيرة شعرت اليزابيث أثناءها بالأمل، ثم إذا بالدلاّل يعلن: ثمانمائة ألف جنيه.

وذلك بارتفاع مئة ألف.

شهق المتفرجون، وتوتر فك ريتشارد، وبحركة مفاجئة، أشار إلى أنه ينسحب من المزاد.

اهتزت اليزابيث شاعرة بالأسى لأجله. توقعت أن يزيد الثمن المدفوع للماسة، لكنه أدرك أمام منافس كهذا، أن الاستمرار في المزايدة ضرب من الجنون.

في لحظة إعلان انتهاء المزاد، نهض واقفاً ثم أمسك مرفقها يساعدها على الوقوف. حاول إخفاء خيبته وضيقه تحت مظهر زائف من الهدوء، لكن استعجاله الخروج من المكان كان واضحاً، وكذلك هي.

يجب ألا يراها... يجب ألا يراها، كبتت رغبة جامحة في الاندفاع هاربة عبر حشد الحاضرين. وهكذا تحركت نحو أقرب مخرج، وذراع ريتشارد حول خصرها. كف قلبها عن الخفقان لمرأى رجل طويل أسود الشعر، لكنها أمعنت النظر، فرأت أنه سمين وفي الأربعين من عمره على الأقل.

وصلا إلى الباب عندما استوقف ريتشارد أحد معارفه، وهو يقول له بعطف: حظ سيء، ولكن ماذا بإمكانك أن تفعل إزاء منافس كهذا.

ـ هل عرفت من يكون؟

ـ نعم، إنه «كين ديرفيل»، وهو ملياردير من الولايات المتحدة. سمعت همساً بأنه جاء من هناك لحضور هذا المزاد، وهذا يعني أنه كان ينوي الحصول عليها.

وعندما ابتعد الرجل، قال ريتشارد نادماً: كان عليّ أن أعلم هذا. فقد

واجهت ديرفيل من قبل...

شعرت اليزابيث وكأنها تلقت صدمة. لم يخطر لها قط أن الرجلين قد تعارفا من قبل...

كان ريتشارد يتابع قائلاً بوجه جامد: عندما يريد هذا العنيد شيئاً، لا شيء يقف في طريقه.

وهذه هي الحقيقة... بعد حوالي ستة أسابيع على رحيلها، أخذ رجل يبدو أنه مخبر خاص، يقتفي أثرها ويراقب تحركاتها. كانت تدرك مدى قسوة كين، وتعلم أنها لا تريد العودة إليه أبداً، لذلك وجدت نفسها مرغمة على الهرب إلى حيث غيرت اسمها وأخفت نفسها، وجعلتها تلك الذكرى ترتجف.

شعر ريتشارد بالحركة الخفيفة، فالتفت إليها يسألها وقد استعاد هدوءه: هل تعرفين ديرفيل؟

ـ كلا.

فقال بقلق: هل تشعرين بشيء؟ تبدين شاحبة؟

ـ ليس بي شيء. ربما ردة فعل على ما حدث.

كانت القهوة تقدّم في قاعة الطعام، فسألها: أتريدين الجلوس وتناول فنجان قهوة؟

ـ كلا، شكراً.

فبدا عليه الارتياح: إذن، سأحضر لك معطفك.

رغم أنه عاد بالمعطف مسرعاً، إلا أن اليزابيث وجدت الوقت طويلاً وهي ترتديه ثم يسيران معاً عبر البهو.

اقتربا من الباب عندما أقبل نحوهما رجل أسود الشعر طويل القامة عريض المنكبين، خرج من خلف أحد أعمدة البهو وكأنه كان ينتظرهما ليقطع عليهما الطريق.

أخذ قلبها يخفق بعنف، واحتقن وجهها وهي تواجه هذا الرجل الذي كانت ترجو ألا تراه مرة أخرى. حاولت الاحتفاظ بالهدوء وهي تقنع

نفسها بأنه لا يستطيع أن يلحق بها الأذى الآن، مهما كانت نواياه.

مدّ الرجل يده إلى ريتشارد، دون أن يلقي عليها نظرة: آه، يا بومونت... لقد قاتلت بشراسة.

حاول بهذه الكلمات أن يخفي استعلاءه. وأجاب ريتشارد وهو يصافحه، مخفياً عداءه: أيجعلنا ذلك متعادلين؟

فقال الرجل بلطف: لا أظن ذلك.

ساد الصمت لحظة، وإذ لم يبتعد الرجل، اضطرت اللباقة ريتشارد إلى القيام بواجب التعارف.

ـ هل لي أن أقدّم إليك السيد كين دارڤيل، يا الزابيث؟

دفعتها الكبرياء اليائسة إلى إبقاء رأسها مرفوعاً وهي تنظر إلى هذا الوجه المستبد. توقعت أن يقول إنه يعرفها جيداً.

كان التوتر ظاهراً بين الرجلين، لذلك علمت أن ريتشارد لن يعجبه الخبر. لو أنها اعترفت له بمعرفتها بالرجل حين سألها لما كان الوضع بهذا السوء. ولكنها، بإنكارها ذلك، أظهرت نفسها مخادعة.

ـ أعرّفك بخطيبتي الآنسة كاڤنديش، يا دراڤيل.

مدّ كين يده يصافحها وهو يقول بعدم اكتراث: تشرفت بمعرفتك، آنسة كاڤنديش.

وكانت نظراته هادئة وتحيته لها عادية تماماً ما أثار استغرابها.

جذبت نفساً عميقاً، وهي لا تكاد تصدق أنه لم يعرفها. ولكن ما المانع من ذلك؟ إنه طبعاً لا يعرف الاسم كاڤنديش هذا، فاسمها الحقيقي هو «جوزيان اليزابيث» وهي تُعرف منذ الطفولة باسم جو...

هذا بالإضافة إلى أنها تغيرت كثيراً منذ افترقا، فقد كانت عظامها النحيلة مكسوّة بطبقة من الشحم ولم يكن حاجباها الكثيفان منتظمين، أما شعرها الطويل فكان قصيراً مجعداً. لكن أكثر ما تغيّر فيها هو طريقة تصرّفها فقد ذهبت تلك الفتاة الممتلئة الجسم البسيطة الملابس الباسمة الفم، الضاحكة العينين، والساذجة الودود إلى غير رجعة. وحلت مكانها

امرأة رشيقة أنيقة متزنة محنكة، عيناها الزرقاوان متحفظتان وشفتاها ناضجتان.

آه نعم! لقد تغيرت إلى حد وفّر عليها، كما يبدو، ما كان سيحدث من مشاكل لو أنه عرفها.

عندما احتوت قبضته الدافئة أصابعها الباردة شعرت بالتوتر والوهن في ساقيها.

لطالما امتلك تأثيراً جسدياً بالغاً فيها، يجذبها إليه كالمغناطيس بالرغم من إرادتها.

تملّكها الذعر لكنها ذكّرت نفسها بأنها امرأة ناضجة الآن ولم تعد تلك الفتاة سريعة التأثر، ولا فتاة وحيدة في الحياة.. لديها الآن ريتشارد، وإذا دعت الحاجة سيكون صخرة تستند إليها.

لكن من المؤكد أنها لن تحتاج إلى ذلك بالنظر إلى موقف «كين» منها ونسيانه لها كلياً. إنها إذن آمنة والحمد لله!

ولكن، أهذا معقول؟ ألا يمكن أن تكون هذه لعبة منه؟ حسناً، إذا كان الأمر كذلك، فليس أمامها سوى مواجهة ما سيحدث.

وبجهد جهيد، تمكنت من القول بصوت منخفض «تشرفنا..».

ـ هل أنت مخطوبة منذ مدة طويلة، يا آنسة كاڤنديش؟

أجفلت لهذا السؤال، وعندما نظرت فاغرة الفم، أضاف يقول: لا أرى في إصبعك خاتم الخطبة.

ثم التفت إلى ريتشارد المتوتر الشفتين، وقال بابتسامة عتب:

ـ يجعلني هذا أتساءل عما إذا كان لديك دافع خاص لشراء ماسة «ڤان هامل؟».

لطالما تحلى «كين» بذكاء حاد. هذا ما فكرت به اليزابيث بإعجاب بالرغم عنها.

قال ريتشارد متجاهلاً السؤال، وهو يمسك بذراع اليزابيث:

ـ نرجو المعذرة، إذا تأخرنا فلن نعثر بسهولة على سيارة أجرة.

www.rewity.com

قال كين وهو ما زال يسدّ عليهما الطريق: إلى أين أنتما ذاهبان؟

حاول ريتشارد الحفاظ على اللياقة وأجاب: «إلى باركلين».

ـ بالمناسبة، أنا ذاهب في نفس الاتجاه.

تسمّرت في مكانها وقد أحست بما سيأتي، وشعرت بدافع إلى الهرب، بينما تابع يقول: لديّ سيارة ويسعدني أن أوصلكما.

حبست أنفاسها توتراً وألقت نظرة على وجه ريتشارد، فابتهجت وهي تراه يوشك أن يرفض. ولكن قبل أن يقول شيئاً، تابع كين قائلاً: إذا كنت ما تزال مهتماً باقتناء ماسة «ڤان هامل»، ربما نتمكن من الحديث بهذا الأمر في الطريق!.

شعرت اليزابيث بجسم ريتشارد يتصلب، كان متلهفاً للحصول على الماسة. أتراه يضحي بكبريائه ويقبل بمناقشة الأمر؟ ولكن لماذا يفعل كين هذا؟ إذا كان صحيحاً أنه جاء من أميركا خصوصاً للحصول على الماسة؛ فلماذا يتنازل عنها لمنافسه؟

كان في تصرّفه هذا شيء من الغرابة، لا شك أنه يخفي شيئاً ما...

كبحت رجفة سرت في جسمها وتمنّت من كل قلبها أن يرفض ريتشارد.

مضت لحظة خيّل إليها أن لا نهاية لها، فإذا به يقول: حسناً جداً.

أحسّت باضطراب كبير، واستدارت تنضم إلى بعض المدعوين الذين ما يزالون يتكلمون عن أحداث هذه الأمسية.

عندما توجهوا نحو المدخل لاحظت النساء وهن يتوقفن لينظرن إلى كين. لم يكن وسيماً بالشكل المتعارف عليه، ولكن وسامته كانت من النوع الخشن المليء بالحيوية الذي يجذب انتباه النساء.

كان الضباب في الخارج قد تكاثف، وفي الساحة كانت أبواب السيارات تنصفق والمحركات تدور بينما هما يرافقان كين إلى المرسيدس الفضية المتوقفة جانباً.

فتح الأبواب، وقبل أن تنطق اليزابيث بأي احتجاج، وجدت نفسها على المقعد الأمامي بينما وجد ريتشارد نفسه على المقعد الخلفي وقد بدا

على ملامحه كل شيء ما عدا الرضا.

جلس كين خلف المقود وهو يسألها: هل أنت مرتاحة تماماً، يا آنسة كاڤنديش؟

وعلى الضوء الآتي من الزجاج الأمامي، تلاقت عيناه الخضراوان بعينيها، وفي الحال أحست أن في سؤاله ونظرته سخرية وكأنه يدرك جيداً مبلغ ضيقها وقلقها.

أجابت بفتور: نعم، شكراً.

كانت أنوار السيارة الأمامية بالكاد تنير الطريق عبر الضباب، وما لبثوا أن انضموا إلى صف السيارات التي كانت تتبع الواحدة منها الأخرى عبر البوابات.

خلف الساحة الهادئة، كانت الشوارع مزدحمة، سألها كين: ماذا تعملين لتأمين معيشتك يا آنسة كاڤنديش، أم لعلك لست بحاجة إلى العمل؟

كرهت السؤال والطريقة التي طرح بها، وترددت قبل أن تجيبه بلهجة متوترة: أنا سكرتيرة اللايدي بومونت.

ـ أحقاً؟ حسناً، إذا كان العمل يجعلك تعيشين في...

فقاطعه ريتشارد وهو يخفي غيظه: كلا، هو ليس كذلك... قلت لي إنك مستعد لمناقشة موضوع الماسة؟

فقال كين بلهجة تماثل لهجة ريتشارد القاطعة: آه! نعم، الماسة. حجر بهذا الحجم يثير الاهتمام نوعاً ما.

ـ سمعت أنك جئت من أميركا خصوصاً لحضور هذا المزاد.

يبدو أن الشكوك ساورت ريتشارد أيضاً.

ـ أحقاً؟

قال ذلك وهو ينسل بسرعة بين حافلة وسيارة تاكسي، ثم أضاف:

ـ بالمناسبة، كاد المزاد يفوتني بسبب عطل تقني في الطائرة جعل هبوطها يتأخر، لم أجد من الوقت إلا ما يكفي لتغيير ملابسي واستئجار سيارة لكي أصل إلى قاعة المزاد في الوقت المناسب.

وتمنت اليزابيث، وهي تتنهد: يا ليته لم يأتِ.

قال ريتشارد بلهجة لاذعة: يدهشني أنك لم تشترك في المزاد بواسطة التليفون.

لاحت على شفتيه ابتسامة طفيفة: ألا تظن أن المزايدة تليفونياً ليست مشوّقة؟ متعة حضور المزاد تفوق متعة الكلام على الهاتف، خصوصاً إذا كانت العروض غير عادية، ولا بد لي من الاعتراف بأنني كنت أتوقع إثارة اكبر، بالمقارنة مع المزادات التي سبق أن حضرتها.

كانت اليزابيث تعلم جيداً أن كين ليس بالرجل الذي يهتم بالأحاديث العادية، وأخذت تستمع إلى صوته وهو يتحدث عن المزاد، وهي تتساءل عما يهدف إليه. وما لبثت، بعد فترة، أن خطر لها أنه يهتم، في الواقع، بهذا الحديث عن المزاد والماسة فقط ليؤخر ما يهدف إليه. ولكن ما هدفه؟

عندما وصلوا إلى باركلين، نظر كين من المرآة إلى ريتشارد يسأله: إلى «لينشبك»، أليس كذلك؟

ودون أن ينتظر جواباً، استدار حول منعطف ليقف أمام مدخل الفندق الفخم.

عضّت اليزابيث شفتها، وهو يتقدم ليفتح لها الباب لتنزل من السيارة، وهي تفكر في أنه توصّل فعلاً إلى معرفة العنوان بدقّة.

نزل ريتشارد من السيارة والضيق يبدو على وجهه: ربما بإمكاننا الاتفاق على موعد نتحدث فيه عن الماسة. هل تقترح وقتاً ومكاناً معينين؟

ـ ما من وقت أفضل من الحاضر.

كانت اليزابيث واثقة من أن ريتشارد، في هذه الظروف وبعدما حدث، يريد الانتظار إلى أن يستعيد هدوء أعصابه. لهذا دهشت عندما أجاب موافقاً: أتريد أن نحتسي شراباً معاً في مقهى الفندق؟

ـ أفضل ذلك في جناحك، إنه يسمح لنا بالانفراد.

إذن، فهذا هو جواب تساؤلها، أخذت اليزابيث تفكر بضيق: إذن

لسبب ما، يريد أن يرى جناح ريتشارد.

اقتنعت الآن بأن ريتشارد وقع في الفخ، وأخذت تدعو الله بأن يجعله يرفض طلب جالب المتاعب هذا، قائلاً له أن يذهب إلى الجحيم.

ولكن قبل أن يقول شيئاً، فتح الخادم لهم الباب الزجاجي وهو يقول بشاشة: يا له من طقس رديء.

أومأ ريتشارد وقد توتر فكه، ثم سار أمامهما عبر الردهة المترفة متجهاً إلى المصعد.

كانت اليزابيث طويلة القامة ممشوقة القدّ لكنها أحست بأنها صغيرة جداً وهي تسير بين هذين الماردين. وعندما غادروا المصعد في الطابق الأعلى، حرصت على أن تجعل ريتشارد بينها وبين كين، حتى وصلوا إلى الجناح.

كانت غرفة جلوسه جميلة بستائرها وسجادتها البنفسجية الداكنة، كما كانت مريحة يغلب عليها الطابع الذكوري.

بعد أن أخذ ريتشارد منها معطفها وعلقه في الخزانة سألها: ماذا تريدين أن تشربي عزيزتي؟

هزت رأسها: «شكراً، سأطلب قهوة فيما بعد».

عندما اتجه ريتشارد نحو المطبخ، سألها كين بلهجة عفوية: أيزعجك أن ألقي نظرة على الشقة؟ كان لي ذات يوم، شقة للعمل في بناية «برنتون». لكنني تركتها.

ارتجفت اليزابيث وهي تتذكر الفترة القصيرة التي أمضتها معه في تلك الشقة حينذاك، وما كان أسعد أيام حياتها تحول إلى كابوس فيما بعد.

وكان كين يتابع قائلاً: أفكر الآن في أن أتخذ شقة مؤقتة أثناء وجودي في لندن بدلاً من الإقامة في الفنادق.

لم يخف اهتمامه بالشقة وهو يطوف في أنحاءها فيرى المكتب الصغير ثم يتحوّل ليرى غرفة النوم الفسيحة مع الحمام الملحق بها.

جلست على ذراع مقعد وأخذت تنظر إليه بحذر. أواه، لماذا عاد إلى

حياتها في الوقت الذي كانت فيه على وشك الارتباط من جديد؟

حاولت كثيراً لتمحو ذكراه، وأوشكت أن تنجح في نسيان الماضي، وأن تقنع نفسها بأن كين لم يعد يعني لها شيئاً. . . ولكن ها هوذا الماضي يعود إليها فجأة، واسترجع كين أهميته. رغم أنها كرهت حضوره وخافت منه، ولكن مجرد رؤيته خطف منها الأنفاس وجعلها مليئة بالأشواق الحلوة المرة التي طالما اعتاد أن يثيرها في نفسها دون أي جهد.

التفت كين إليها فالتقت العيون. أشاحت عينيها خوفاً من أن يقرأ ما فيهما. بدا لها أنه محاهما، هي والماضي، من ذاكرته. وآخر شيء تريده الآن هو أن تعود فتذكّره بهما.

تقدم وجلس أمامها، ثم أخذ ينظر إليها بإمعان. . . رفع بعدها حاجباً أسود، وهو يقول: لا أظنك تقيمين هنا، آنسة كافنديش.

كانت تريد أن تؤكد على وضعها كخطيبة ريتشارد، لهذا كرهت الاعتراف بذلك، فسألته: ما الذي جعلك تظن ذلك؟

ـ لأنني لم أجد أثراً لإقامة امرأة. ولو كنت تسكنين هنا، لذهبت لصنع القهوة بنفسك طبعاً.

فقالت مازحة: أرى هذا تعصّباً للرجل.

ـ كلا، أبداً.

ـ لكنك تعتبر المطبخ مكان المرأة؟

فقال باسماً بسخرية: «أعرف مكاناً للمرأة أفضل من المطبخ».

تضرج وجهها وحولت عينيها عنه.

ـ أين تسكنين إذن، يا آنسة كافنديش؟

همّت بأن تقول له بحدة أن ذلك ليس من شأنه، لكنها لا تريد أن تثير شكوكه، فقالت متعمدة الغموض: أسكن، حالياً، في كوخ صغير.

ـ في غرب لندن؟

بصرف النظر عن دوافعه، بدا واضحاً أنه لن يتراجع.

ـ بل في «هوكسلين». . .

قالت ذلك راجية ألا تكون لديه فكرة عن ذلك المكان، ثم قالت بهدوء: أرجو المعذرة، أريد أن أرى إن كان ريتشارد يحتاج إلى مساعدة.

وفي هذه اللحظة ظهر مضيفهما يحمل صينية القهوة. ناول كلاً منهما فنجانه، وفي عينيه نظرة المحارب. التفت إلى كين وقال: كنت أريد النوم باكراً، لهذا أتمنى لو ننتهي من الحديث عن الماسة، دون تأخير.

ـ طبعاً.

خيّم الصمت للحظات، والتفت ريتشارد بعدها إلى كين وعلى وجهه أمارات غضب: هل تتكرم بذكر الثمن الذي تريده؟

ـ قبل أن أفعل هذا أريد أن أعرف سرّ اهتمامك البالغ بهذا الحجر الكريم.

مرت لحظة صمت أخرى قبل أن يعترف ريتشارد بصراحة: كنت على صواب حين قلت إنني سأحوّله إلى خاتم الخطبة. هذا ما سأفعله، وإذا كان هذا يرفع من ثمنه. . .

ـ بل بالعكس في الواقع، سأعطيك إياه بنفس المبلغ الذي دفعته فيه.

تملكت اليزابيث الشكوك مرة أخرى، لماذا يريد أن يتخلى عن الماسة التي بذل كل ذلك الجهد للحصول عليها، دون أن يستفيد من ذلك؟

كل ذلك مجرد هراء.

* * *

www.rewity.com
marmoria555

٢ ـ لا مفر . . .

قال ريتشارد ببطء: «هذا تصرف نبيل، ولكن هل لي أن أسأل عن السبب؟».

أجاب كين بابتسامة ساخرة: اعتبرها هدية العرس. سأتصل بك غداً لاستكمال الإجراءات.

ـ سأذهب إلى أمستردام لقضاء العطلة الأسبوعية، وأعود صباح الاثنين.

ـ لنفعل ذلك عصر يوم الاثنين، إذن.

ـ حسناً، سأكون في «لومبارد سكوير».

وضع كين قهوته التي لم يمسّها، ثم نهض واقفاً: قلت إنك ترغب بالنوم باكراً ولهذا عليّ أن أنصرف.

تنفست اليزابيث بعمق. . . إنه خارج، وإن حالفها الحظ، فلن تراه مرة أخرى. كان هذا المساء مزعجاً للغاية. . .

قال ريتشارد وهو يسير معه دون أن يستطيع كتم ارتياحه: دعني أسير معك إلى الباب.

استمر كين واقفاً وهو يقول: يسعدني أن أوصلك إلى بيتك، آنسة كاڤنديش.

اهتزت لقوله الهادىء هذا.

ـ كلا. . . كلا، في الواقع. . . لا يمكنني أن أسبب لك كل هذا الإزعاج.

كان آخر ما تريده أن يوصلها كين إلى بيتها. لكنها أدركت فجأة أنها لا تريد أن تبقى في شقة ريتشارد أيضاً.

لقد تغير مزاجها ولم تعد تريد المكوث في شقة ريتشارد بسبب

أحداث المساء هذه، هذه الأحداث التي جعلت عقلها وأحاسيسها معاً في دوّامة. إنها بحاجة إلى وقت للتفكير. . لكي تشفى من الصدمة التي أحدثتها رؤية كين مرة أخرى.

قالت بسرعة: «سأذهب في تاكسي، فيما بعد».

يجب أن تتحدث إلى ريتشارد، أن تخبره بأن لديها صداعاً. . . أن تعتذر عن البقاء. . .

اخترق أفكارها صوت كين الهادىء.

ـ لا أظنك ستجدين تاكسي يغامر بالخروج. الضباب تتزايد كثافته بين دقيقة وأخرى.

وأشار إلى النافذة حيث لا يبدو سوى الضباب.

ـ إذا لم تذهبي معي الآن، فستبقين هنا طوال الليل.

قد يكون على حق، إذا بقيت هنا في هذا الجناح حيث هناك غرفة نوم واحدة فسيكون الوضع محرجاً.

ـ كما أنك لن تزعجيني على الإطلاق، فأنا سأذهب في ذلك الاتجاه.

وكأن الأمر استقر على هذا، تقدم إلى خزانة المعاطف وتناول معطفها يلبسها إياه.

عندما رأت اليزابيث أن غضب ريتشارد أوشك على الانفجار، حسمت أمرها. ألقت عليه نظرة ذات معنى ثم قالت: في هذه الظروف، من الأفضل أن أذهب.

بدا لها لوهلة أنه سيعترض على ذلك، لكنه فهم أن تصميمها هو بدافع الحشمة، فسكت وهو السيد المهذب.

قالت وهي ترتدي معطفها: كانت أمسية مرهقة، وأنا على أتم الاستعداد للذهاب إلى النوم.

لو كانت مع ريتشارد بمفردهما، لأخذها بين ذراعيه بلهفة وحرارة، لكنه، في حضور هذا الرجل الآخر، اكتفى بقبلة خفيفة على وجنتها وهو يقول: لديك عطلة يوم الإثنين، أليس كذلك؟ سأراك إذن يوم الثلاثاء وقد

www.rewity.com

نذهب إلى الصائغ للتباحث في كيفية تركيب الماسة على الخاتم.

ـ هذا جميل.

قالت ذلك بابتسامة مغتصبة بينما شعور غامض يبعث القشعريرة في جسمها.

عندما تركا الشقة معاً، قال كين ساخراً: هل سبب تلك الرجفة هو البرد أم الإثارة؟

أجابت دون تفكير: لا هذا ولا ذاك، إنه فقط شعور منذر بشرّ قادم.

فقال بنعومة وعيناه الخضراوان بأهدابهما الكثيفة السوداء تلمعان كعينيّ الهرّ: كنت أعرف ذات يوم فتاة اعتادت أن تقول ذلك.

لعنت اليزابيث لسانها غير الحذر بينما كين يقودها ويده على خصرها، إلى حيث المصعد. وقف وهو يكاد يلتصق بها وكأنه سجّان، فدفعها الخوف إلى الجمود في مكانها.

هبطا في المصعد صامتين، فحاولت إقناع نفسها بأن ما قاله لا يخرج عن كونه مجرد ثرثرة. أم لعله تكّهن فعلاً بحقيقة شخصيتها؟ وجمد الدم في عروقها.

آه! لماذا جاءت معه؟ كان هذا غباءً وخطراً بالنظر إلى أحداث الماضي... إنه أشبه بالقفز من المقلاة إلى النار.

لو بقيت مع ريتشارد لكانت آمنة على الأقل، فهو لن يرغمها على شيء.

لم يكن ريتشارد رجلاً عديم الإحساس، وبما أنه لا يعرف حقيقة كين، سيصدّق طبعاً أن أحداث المساء أثرت على أعصابها، فيغفر لها تغيّر مزاجها.

لكن الأوان الآن قد فات.

في الخارج، كان الضباب كثيفاً رطباً، يغلّف مدخل الفندق، ويحجب الواجهة المزخرفة، ويحوّل المصابيح إلى أشباح براقة. لم تشاهد مشاة في المكان، كما أن ضجيج حركة السير في «باركلين» كان

هامداً.

قال البواب: الجوّ رديء جداً، سيدي.

قال كين وهو يدس في يده بقشيشاً سخياً: هذا صحيح، الطقس لم يتحسن على الإطلاق.

قالت اليزابيث بلهفة: ربما يستحسن أن نبقى. لا بد أن لديهم غرفة خالية، وهذا يعفيك من قيادة السيارة في هذه الحالة.

ـ ما من مشكلة، سبق أن قدت السيارة في ظروف أسوأ.

وأمسك بمرفقها يساعدها على الصعود.

عندما انضما إلى حركة السير البطيئة، أخذت تحدق إلى الأمام وقد تملكها التوتر والقلق، إلى أن شعرت بألم في عينيها. قالت لكي تبدد الصمت الذي طال حتى لم يعد محتملاً: هذا هو الضباب الذي نقرأ عنه في مسرحيات القرن التاسع عشر.

بدا صوتها الرقيق الصافي متحشرجاً متوتراً.

ـ لا تخبريني بأنك قرأت مسرحيات القرن التاسع عشر.

قال ذلك متعمداً الذهول وهو يلقي عليها نظرة جانبية هازلة.

اعترفت تقول بلهجة حزينة: لقد أحببتها جداً.

ـ هل ريتشارد معجب بنوعية قراءاتك؟

وضحك.

ـ ليس لديّ فكرة.

ـ لا يبدو أنكما تعرفان بعضكما البعض جيداً.

ـ بل نحن نعرف بعضنا البعض جيداً.

حتى وهي تقول ذلك كانت تعلم أن هذا ليس صحيحاً، ذلك أن ريتشارد لا يعرف إلا تلك المرأة الباردة المتحفظة التي أصبحتها.

كل الدفء والعواطف الحارة، والمرح وسخاء النفس، والحيوية المتوثبة، كل ذلك مات وانتهى، دفن تحت شاهد القبر الذي كُتب عليه الماضي.

www.liilas.com

- متى تعارفتما؟

بدا هذا السؤال مجرد ثرثرة تافهة.

- عندما ابتدأت العمل عند اللايدي بومونت.

- متى كان ذلك؟

تساءلت اليزابيث عما إذا كان مهتماً حقاً أم أنه مجرد حديث مهذب، ولكن، في الحالين، يبدو أن الكلام أفضل من الصمت. أجابت:

- في شباط الماضي، عندما سافر الكاتب الذي كنت أعمل عنده إلى الخارج. أرسلتني إحدى وكالات التوظيف للعمل مؤقتاً بديلة للآنسة وليامز، سكرتيرة اللايدي بومونت المريضة. وفي نيسان، تركت الآنسة وليامز العمل لكي تتزوج، فعرضوا علي وظيفتها بشكل دائم.

- إذن أمضيت أيامك تتعاملين مع سيل من المراسلات الاجتماعية؟ لا بد أن هذا كان عملاً ممتعاً للغاية.

كان التهكم واضحاً في حديثه. ألقى عليها نظرة جانبية: أليس هناك تعليق؟.

- كان الراتب جيداً.

- إذن فقد تعارفتما، أنت وبومونت، في شهر شباط... هل أنتما مخطوبان منذ وقت طويل؟

- سبق أن طرحت هذا السؤال.

- لم أتلق جواباً، كما أذكر.

عندما لم تجب، تابع يقول: يبدو لي أن الخطبة لم يمرّ عليها وقت طويل، أبداً.

- ما الذي جعلك تظن ذلك؟

- لأنك أجفلت عندما قدمك بومونت إليّ بصفتك خطيبته... وكأنما لم تتعوّدي بعد على هذه الصفة.

لطالما كان كين خصماً منيعاً، فكرت في ذلك بمرارة... إنه لا يغفل شيئاً، وعقله الفطن سريع الاستنتاج.

تابع يقول: في رأيي أن بومونت هو من النوع القديم الطراز، ذلك النوع الذي يركع على ركبتيه ثم يضع الخاتم في إصبع من يختارها على أنغام الموسيقى الناعمة، ونور خافت وردي.

عضت اليزابيث شفتها إزاء هذه السخرية الواضحة.

- ومع ذلك، لم تلبسي الخاتم بعد، ما يوحي بأن عرض الزواج حدث لتوّه، وماسة «فان هامل» هي إغراء لك. ربما لأنه لم يكن واثقاً من قبولك.

كان استنتاجه دقيقاً وكأنه كان موجوداً.

- أو ربما لسبب آخر.

- لسبب آخر؟

- إما لإقناعك بالذهاب معه إلى الفراش، وإما لإبقائك معه إذا أخذت تظهرين النفور.

إذا كانت الخمس سنوات الماضية علمت اليزابيث شيئاً، فهو ضبط الأعصاب، وهكذا أخذت تعد للعشرة... كانت قد وصلت إلى الأربعة عندما قال: هيا، اعترفي.

- بماذا أعترف؟

خنق الغضب المكبوت صوتها.

- إذا لم تستطيعي التفكير في شيء أفضل، جرّبي أن تقولي: يا لجرأتك!.

- يبدو لي أنني لست الوحيدة التي تقرأ مسرحيات القرن التاسع عشر.

ضحك من كل قلبه ثم قال: أرى أنكما لم تقررا بعد موعد الزفاف.

أجابت بلهجة جعلتها عفوية قدر الإمكان: كلا، ولكن ريتشارد اقترح أن يكون الزفاف في الربيع.

- أتظنين أن اللايدي بومونت توافق على اختيار ابنها؟

كانت اليزابيث تشك في ذلك قليلاً... رغم أن اللايدي بومونت كانت ودوداً رضية الخلق إلى حدّ ما، إلا أنها تفضل طبعاً أن تكون كنّتها

www.rewity.com
manmoria555

سيدة مجتمع وليس سكرتيرة.

ـ لا أعلم، عليك أن تسألها.

ـ افرضي أنها لا تقبل؟

أجابت بهدوء: أفضل أن أفرض أنها تقبل... ولكن سواء قبلت أم لا، ريتشارد ليس من النوع الذي يفرض عليه الآخرون رغباتهم.

ـ إذن فأنت تظنين حقاً أنه سيتزوجك؟

ـ هذا ما قاله.

ـ وأنت هل تريدين الزواج به؟

ـ طبعاً.

رفع كين حاجبيه فتمنت على الفور لو أنها قالت نعم ببساطة بدلاً من إظهار كل هذه الحماسة.

سألها بنعومة: لماذا؟ أم لعل هذا سؤال أحمق؟

ـ أتعني أنني سأتزوجه من أجل أمواله؟

ـ وهل هذا صحيح؟

ـ لا.

ـ لماذا إذن؟

أزعجها إصراره هذا فقالت الحقيقة: لأنني أريد أسرة وبيتاً أستقر فيه. أليس هذا ما تريده معظم النساء؟

فلوى شفتيه: إذن فأنت لا تحبّينه.

ـ طبعاً أحبه.

ـ كان عليك إذن أن تذكري الحب أولاً، معظم النساء يفعلن هذا.

كان رجلاً لا يمكن خداعه.

ـ ما كنت سأتزوجه لو لم أكن أحبه.

ضحك كين بخشونة: يا له من مسكين إن كان حقاً يحبك!

قالت بحدة: ماذا تقصد؟

ـ آه، أظنك تعرفين.

ـ أنت مخطىء.

هز كتفيه: لم ألاحظ أية عاطفة محمومة تجاهه!»

كان آخر شيء تريده هو العاطفة المحمومة التي تشبه النيران الهوجاء التي تحرق كل شيء تصل إليه. قالت بحدة: ما الذي جعلك تظن أن ثمة نقص في العواطف؟ على كل حال، لا خطأ في زواج لا يحرق الاثنين.

ـ زواج كهذا ليس صحياً أيضاً.

قالت بحدة: تتكلم كما لو أنك خبير؟

ـ ليس تماماً، وعلى كل حال، إذا كانت زوجتي..

انفجرت تقول: لكنك لست متزوجاً.

ثم عادت تسأله باضطراب: هل أنت متزوج؟

ـ نعم، أنا متزوج، ما الذي جعلك واثقة من أنني لست متزوجاً؟

ـ أنا... أنا لم أكن واثقة... ظننت فقط.. أعني افترضت أنك...

وأعوزتها الكلمات. لم تكن تنتظر منه أن يبقى عازباً وهو المكتمل رجولة وحيوية. وفي الواقع، طالما عذبت نفسها وهي تتصوّره يعاشر سلسلة من الصديقات، إذ كانت الغيرة تحرقها من تلك النساء المجهولات. ولكنها، لسبب ما، لم تتوقع أن يكون متزوجاً.

ولماذا لا يكون؟ خمس سنوات هي فترة طويلة، وقد قال مرة إنه يريد أولاداً، ربما أصبح رب أسرة الآن... وكانت تلك الفكرة أشبه بسكين طعنتها في قلبها. لكنها أقنعت نفسها بضرورة أن تكون شاكرة. من الواضح أنه نسي الماضي، وحتى ولو عرفها الآن، لن يشكّل أي خطر عليها...

ـ ها نحن وصلنا.

اخترق صوته أفكارها. أخذت تحدّق من خلال الضباب، فلم تر سوى أنهما الآن في منطقة «هاوكسلين». لم تكن تريد أن يعرف كين عنوان سكنها بالضبط، لذلك قررت أن تنزل من السيارة في الشارع العام، ثم تسير مسافة قصيرة لتصل إلى بيتها لكن ذلك فاتها الآن.

www.rewity.com

ـ ما هو رقم بيتك؟

أجابت كارهة: خمسة عشر. إنه بعد المصباح الثاني مباشرة.

ثم أخذت تبحث في حقيبة يدها عن المفتاح.

عندما وقفت السيارة أمام البيت، قالت بسرعة: شكراً جزيلاً. لا تتعب نفسك بالنزول. إذا تابعت السير، ستجد مكاناً تنعطف فيه بالسيارة بعد خمسين ياردة تقريباً.

أطفأ المحرك متجاهلاً كلامها، ثم خرج من السيارة وبعد ذلك بلحظة، كان يفتح الباب لها.

تعثرت وهي تنزل من السيارة بسرعة فسقط المفتاح من يدها، وسمعت صوت وقوعه على بلاط الشارع.

انحنى ليلتقطه وهو ما زال ممسكاً بمرفقها، وبعد لحظة كان يفتح باب بيتها ويشير إليها بالدخول.

أشعلت نور الشرفة وأوشكت أن تشكره وهي تغلق الباب، فإذا به يتجاوزها ويدخل. وقبل أن تعرف ما حدث، كان قد أغلق الباب واستدار يساعدها على خلع معطفها.

وعندما علّقه عاد إليها وإذ رأى الذعر على وجهها سألها ببراءة: هل يزعجك شيء؟

قالت بحذر: شكراً على مرافقتي إلى هنا سيد دارڤيل، لكنني لم أكن أنوي دعوتك إلى الدخول... وكما سبق أن قلت، كانت أمسية متعبة وأريد النوم باكراً.

كانت تهم بإعادة فتح الباب، عندما أطبق بأصابعه على معصمها. جمدت مكانها، فقال بنعومة: قبل أن تطرديني من بيتك، أظن أن أقل ما عليك أن تقومي به هو أن تقدمي إليّ فنجان قهوة.

أدركت أنها لا تستطيع التخلص منه إلا إذا شاء هو ذلك، فقالت: حسناً جداً.

عندما ترك معصمها، سارت نحو المطبخ متظاهرة بالهدوء، وقررت

أن السرعة هي الأفضل، فملأت إبريق القهوة بيد ترتجف. كان دوماً يحب قهوته دون حليب، وثقيلة قليلاً، مع ملعقة سكر واحدة. وحالما انتهت القهوة ذهبت بها إلى غرفة الجلوس بسرعة.

وجدت الأنوار مضاءة والمدفأة مشتعلة والستائر مسدلة، وكان قد خلع سترة السهرة، وأرخى ربطة عنقه، وبدا متراخياً في جلسته وكأنه في بيته، أمام المدفأة. ناولته فنجانه وسألها: شكراً، ألن تتناولي القهوة أنت أيضاً؟

هزت رأسها نفياً، فربّت على الأريكة بجانبه: اجلسي إذن بجانبي.

كانت تنوي أن تجلس بعيداً عنه، لكنها بعد تردد، قررت أن من الأفضل عدم مقاومته، فأطاعت تاركة مسافة بينهما، يا ليته فقط يشرب قهوته ويذهب!

ـ لا بد أن لديك قوة ملاحظة غير عادية.

وعندما نظرت إليه ببلادة، قال موضحاً: لأنك تعرفين بالضبط كيف أريد قهوتي.

قالت كاذبة وقد تملكها الاضطراب: لا بد أنني كنت أفكر في ريتشارد. فهو يحب قهوته بهذا الشكل... يبدو أن ذوقكما واحد.

ـ يدهشني أن الرجل الذي يحب قهوته دون حليب، يضع في قهوة الآخرين القشدة بشكل آليّ.

تذكرت، بعد فوات الأوان، القهوة بالقشدة التي أعدّها ريتشارد، فقالت وهي تدعو الله أن ينسى كين الموضوع: إنه يعلم أنني أحب القهوة بالقشدة.

سمع الله دعاءها. وضع فنجانه على المنضدة ثم أخذ ينظر حوله إلى السقف المنخفض والجدران البيضاء والأرض الخشبية المصقولة، ثم قال: هذا مكان بديع. منذ متى تعيشين فيه؟

ـ منذ حوالى تسعة أشهر.

ـ أنت محظوظة جداً. إن كوخاً مثل هذا لا يُعرض غالباً للتأجير.

www.liilas.com

ـ إنه غير مؤجر.

فقال برقة: آه! لا بد أنه عش غرام إذن.

ـ إذا كنت تعني أن ريتشارد يأتي إلى هنا...

وسكتت فجأة بعد أن أدركت أنها تتصرف بطريقة تضرها ويستفيد هو منها.

ـ أليس هذا صحيحاً؟

ـ لا بكل تأكيد، ما عدا أنه يحضر لأخذي من البيت أحياناً.

ـ لكنه هو الذي أقامك هنا.

ـ لا!.

قال دون محاولة لإخفاء ارتيابه: لا أظن امرأة بمرتب سكرتيرة يمكنها شراء مكان كهذا.

ـ أنا لم أشتره... إميلي هندرسون، وهي الكاتبة التي اشتغلت عندها عدة سنوات، طلبت مني العناية به...

بعد سكنها في غرفة قذرة فوق دكان حقير، كان انتقالها إلى كوخ جميل كهذا أشبه بمعجزة. ثم أضافت بفتور، متسائلة عما يجعلها تزعج نفسها بالشرح: سافرت إلى أستراليا لقضاء عام مع أسرة ابنها.

لكنها تعلم جيداً سبب صراحتها، إنه من آثار الماضي البغيض حين أساء كين الحكم عليها. حسناً، لقد انتهى الماضي ولم يعد عليها أن تبرّر أيّ شيء الآن.

عبس وكأنه قرأ أفكارها، وقال: أين تلتقيان؟ ليس في شقته، ذلك واضح... كما أنني لا أرى منزل أسرته مناسباً لذلك.

قالت بحدة وقد فقدت أعصابها: لا أستطيع أن أفهم ما شأنك أنت بمكان لقائنا.

ـ إذن أنت على علاقة به.

ظهرت في كلماته هذه نبرة الانتصار، إلا أنها كانت تنمّ أيضاً عن قبول الأمر الواقع اكثر من الرضا. وكان يتابع قوله: وهو يريد أن يجعل الماسة

طعماً لك لكي يحتفظ بك...

فانفجرت ثائرة: أنت مخطىء تماماً، ريتشارد يريد الماسة لذاتها، أما سواء كنت على علاقة معه أم لا، فهذا شأني الخاص.

امتزج على ملامح كين الغضب والألم. لم يدم ذلك سوى لحظة، ظنّت اليزابيث أنها تتوهّم.

قال بعد لحظة من التفكير: رغم أنك بدوت كالغريبة في شقته، بدا لي أنك نويت قضاء الليل هناك.

ـ وماذا لو فعلت ذلك؟

ـ ومع ذلك لم يكن يبدو عليك الاستعداد لذلك. لم أرَ في الشقة كيس حاجيات حتى، وهذا ما يدلّ على أن قضاء الليلة هناك لم يكن مخططاً له من قبل، وأظن أن تكهّني كان في محله حين افترضت أنه عرض عليك الزواج هذا المساء، وربما في طريقكما إلى المزاد. أظنه عرض عليك إقامة علاقة معه حينذاك.

رأى من ملامحها أنه على صواب، فابتسم ساخراً. وعندما تعمدت الصمت، تابع يقول: من المؤكد أنه كان يتوقع منك البقاء، ورغم أنه بذل جهده للتصرف كرجل مهذب، بدا عليه الغضب عندما أدرك أنك ستخرجين...

ثم أضاف بلهجة لاذعة: لماذا غيّرت رأيك؟ هل ذلك لأجلي؟

أجابت مستنكرة: ولماذا يكون لأجلك؟

ـ أخبريني.

ـ لم يكن لك شأن بذلك.

ـ لماذا إذن؟

ـ شعرت بصداع. والآن، أريد حقاً أن أنام، فإذا أنهيت قهوتك..؟

تناول فنجانه وشربه، ثم قال: تبدين متلهفة للتخلص مني بشكل غير عادي.

عندما لم تحاول نفي ذلك، التفت إليها وعيناه الخضراوان تلتمعان:

ـ يدهشني عدم تهذيبك معي رغم علمك بأنني ما أزال أملك ماسة «فان هامل».

كانت هذه المراوغة تهديداً صريحاً.

اندفعت تجيب قبل أن تراجع نفسها: لا تهمني ماسة «فان هامل» مقدار ذرة.

ـ قد لا تهمك الماسة لكنها تهم خطيبك بكل تأكيد، وفي الواقع بالنظر إلى المبلغ الذي جعلته يعرضه هذه الليلة، أظنه متلهفاً للحصول عليها...

ومرة أخرى، كان كين على صواب مئة بالمئة.

ـ وهكذا، إذا كنت لا تريدين أن يصاب بخيبة الأمل...

ولم تكن هي تريد ذلك.

ربما بسبب طبيعته ونشأته المرفهة، لم يكن ريتشارد يتقبل الخسارة. إنه كالصبي المدلّل، لا ينسى الهزيمة. خسارة هذه الماسة الآن ستملأه مرارة، وقد ينتهي ذلك بإفساد الخطبة كلياً. ومهما كانت نفاسة الحجر الذي سيضعه لها في خاتم الخطوبة، كانت اليزابيث تعلم أنه سيعتبره دوماً درجة أدنى، وسيشعر بالغضب كلما نظر إلى الخاتم.

حاولت التظاهر بالتهذيب بقولها: آسفة إذا كنت غير مهذبة معك.

قال مشجعاً: هذا أفضل. والآن، ربما تعدّين لي عشاء، وفنجان قهوة آخر، وأرجو أن تأكلي معي فأنا أكره تناول الطعام وحدي.

كان ظاهر الطلب مؤدّباً، وباطنه أمراً صريحاً. علمت تماماً أنه يعبث بها مستفزاً، وشعرت برغبة عنيفة في أن تصفعه وتطرده من بيتها، لكنها، بدلاً من ذلك، نهضت واقفة دون أن تنطق بكلمة، وتناولت فنجانه الفارغ واتجهت إلى المطبخ.

هذه المرة سخنت القهوة، وأخرجت من الثلاجة لحماً وجبناً، وكانت تقطّع الخبز عندما أجفلت لحركة عند الباب جعلت السكين تخزها في إصبعها، فشهقت، وفي لحظة، كان كين بجانبها ينظر إلى إصبعها

الدامي: دعيني أرى الجرح.

فقالت تطمئنه: إنه طفيف.

ولكن عندما وضع إصبعها في فمه يمتص منه الدم، اندلعت النار في جسمها، وفي نفس الوقت أخذ يحدّق في عينيها وكأنه يقيّم مدى تجاوبها.

بدا وكأن دهراً مضى قبل أن تستطيع تحويل عينيها عن عينيه ورأسها يدور. وعندما أخذ يفحص الجرح الذي توقف نزيفه، قال: أين تضعين صندوق الإسعاف؟

قالت وهي ترتعش: في الخزانة.

قال بعد أن انتهى من وضع الشريط اللاصق على إصبعها وأعاد الصندوق إلى مكانه: أنت ترتجفين، من الأفضل أن أصنع أنا الشطائر.

ـ لا، أنا بخير حقاً.

كانت تريد أن تشغل نفسها.

استند إلى الجدار وأخذ يراقبها، حتى أنهت صنع الشطائر والقهوة، ووضعتها على صينية تبرّع هو بحملها. وهكذا تبعته إلى غرفة الجلوس، لا تكاد تصدق ما يحدث.

كانت على وشك أن تجلس على كرسي بذراعين، بعد أن وضع هو الصينية، على المنضدة المنخفضة، عندما أشار إليها بالجلوس بجانبه. ثم وكأنه صاحب المكان، أخذ يسكب القهوة، وقدم إليها الطبق: ألا تريدين شطيرة؟

تناولت واحدة لا تريدها أخذت تلوكها في فمها، بينما أخذ يأكل بشهية ملحوظة.

ظنت حين طلب منها عشاء أنه يستعرض سلطته، لكنها فوجئت حين رأته جائعاً حقاً. عندما رآها تنظر إليه مدهوشة، قال: فاتني العشاء هذه الليلة.

ثم أضاف لاوياً شفتيه: ظننتني أتدرّب على سوء السلوك، أليس كذلك؟

www.rewity.com

ـ لا أظنك بحاجة إلى تدريب.

انطلقت الكلمات من فمها قبل أن تستطيع منعها: آه! حسناً، أظنني تسببت في هذا الجواب.

أدهشها أن تراه يضحك وقد بدت أسنانه القوية الصحيحة وبدت ثنية بجانبي فمه.

خفق قلبها وهي تتذكر عناقه... وما كان يبعثه في كيانها.. ربما خرج منها صوت جعله ينظر إليها بإمعان، وفي لحظة كان وجهها يتوهج احمراراً.

قال ساخراً: أتفكرين بشيء يثير الخجل؟

كانت تعلم أن الإنكار لا يفيد، فقالت كاذبة: كنت أتمنى لو بقيت مع ريتشارد رغم الصداع.

أرادت حقاً أن يصدقها كين، وهذا ما حدث فعلاً حين توترت ملامحه.

ولماذا يغضب ولا شأن له بما تفعل؟ قال ببطء: إذا كان هذا منظرك عندما تفكرين فيه، فمشاعرك نحوه إذن أقوى مما كنت أظن. لا أذكر أنني سبق أن رأيت مثل هذا الشوق السافر على وجه امرأتي...

عضت باطن شفتها السفلى حتى شعرت بطعم الدم، ثم قالت بكل ما استطاعت التظاهر به من اتزان: لقد تأخر الوقت.

نهضت تسير نحو النافذة تزيح عنها الستائر، متلهفة إلى خروجه. كان الضباب من الكثافة الآن بحيث لم تستطع رؤية العالم الخارجي. تابعت تقول: «الأحوال الجوية لم تتحسن».

قال برقة: «الحق معك تماماً، الأفضل أن أبقى هنا بدلاً من الخروج والتسبب بحادث».

ـ لا... أنا لم أقصد هذا، لا يمكنك البقاء هنا. لدي غرفة نوم واحدة.

ـ أستطيع النوم على الأريكة.

صرخت بذعر: لا... لا أريد منك أن تفعل ذلك...

رفع حاجبيه: فهمت! حسناً، إذا كنت تريدين أن أشاطرك الفراش، يسعدني أن أنوب عن ريتشارد.

ـ ليس هذا ما كنت أعنيه!

فتنهد: «هذا مؤسف، ظننت لوهلة..».

ـ أنت تعلم جيداً أن الأمر ليس كذلك.

دلتها ابتسامته العريضة على أنه كان يغيظها فقط، وقال ساخراً: سأنام إذن على الأريكة.

قالت بيأس: ولكن ليس لديك ملابس نوم.. ومن المؤكد أن فندقك ليس بعيداً.

ـ بل لديّ بعض الملابس للنوم، أما ما ليس لديّ فهو الفندق. لم اكن أنوي المكوث في المدينة، كنت أنوي الذهاب إلى «سالمارش».

همست تقول: سالمارش؟

تواترت الصور في ذهنها، مدينة «سالمارش» بشوارعها الضيقة وبيوتها الخشبية، وجوها القديم الطراز الذي ما زال مخيّماً... جزيرة سالمارش التي تبلغ حوالى الميل طولاً ونصف الميل عرضاً وتتصل باليابسة بممرّ لا يمكن اجتيازه إلا وقت الجزر... «منزل سالمارش» المنزل القديم الرائع الجمال الذي يشرف على الجزيرة ويهيمن عليها... نظر إليها متفحصاً: إنها في إقليم «إسكس». ألم تذهبي قط إلى هناك؟

هزت رأسها بصمت وما زال ذهنها مليئاً بالصور. كانت ذات يوم مدينة مزدهرة، لكنها راكدة الآن ولا يعدو عدد سكانها عدة آلاف.

ـ كان أبي يحب أن يعيش على الشاطىء.

كان يحب أن يعيش؟ لقد أخبرها هنري دارڤيل مرة أنه لن يترك بيته أبداً بإرادته. هل أصبح مريضاً جداً بحيث لم يستطع البقاء هناك؟ رأت عيني كين تضيقان، وكانت على وشك أن تطرح عليه السؤال... لكنها لم تفعل بالطبع...

www.rewity.com

عادت إلى الموضوع، محاولة تمالك نفسها: أنا واثقة من أن بإمكانك العثور على فندق، هناك عدد منها غير بعيد من هنا.

ـ أنت محقّة، ولكن بعد التفكير ملياً، أفضّل الموت هنا.

قالت ضارعة: لا... أرجوك...

ـ ممّ تخافين؟ أتخشين أن أجول في البيت ليلاً؟

لم يكن هذا ما يخيفها، فقد اعترف بلسانه أنه متزوج، وهي مقتنعة بشكل غريب بأنه رجل لا يمكن أن يخون زوجته.

عندما أخذت تهز رأسها، قال متابعاً: إذا كان هذا هو السبب، أعدك بألا أنهض عن الأريكة.

ـ لا، ليس هذا هو السبب.

قال وعيناه تلمعان: هل تخافين من أن تدفعك مشاعرك المحبطة إلى التجوّل؟

ـ لا شيء من هذا!

ـ لماذا إذن ترفضين بقائي إلى الصباح؟

كانت تريد منه أن يذهب الآن حالاً، تريد ألا تراه بعد الآن أبداً. لم تكن تحتمل فكرة بقائه تحت سقف بيتها حتى الصباح. قالت بصوت متحشرج: سيغضب ريتشارد جداً إذا علم بذلك.

ـ إذن لن نخبره، إذا أعطيتني وسادة وبطانية، سأحضر حاجياتي.

ارتدى سترته، ثم خرج إلى سيارته تاركاً الباب مفتوحاً.

وقفت جامدة مكانها، تشعر بالعجز والغثيان، تنظر إلى الضباب يتسلل إلى الغرفة ثم يتلاشى.

بعد لحظات، سمعت صوت صندوق السيارة ينغلق. عند ذلك فقط، رغم أن جزءاً من عقلها نبذ ذلك، أسرعت إلى الباب وصفقته بعنف إذا لم يستطع أن يرى الطريق وهو يقود سيارته، يمكنه أن يسير على قدميه إلى أقرب فندق.

* * *

٣ ـ لعبة الفأرة والهر

قبل أن تنتهي من التفكير في ذلك، سمعت المفتاح يدور في القفل، وبعد ذلك بلحظة انفتح الباب على اتساعه.

تمنت من كل قلبها، بعد فوات الأوان، لو أنها تصرفت بسرعة فدفعت المزلاج أو وضعت السلسلة.

أغلق الباب خلفه بعناية، ثم وضع اللفافة الصغيرة التي كان يحملها على الأريكة، وهز رأسه بعدم استحسان: لم تكن هذه شهامة منك، من حسن الحظ أن المفتاح كان في جيبي.

سألته بمرارة: هل كان ذلك مصادفة أم بعد نظر؟

ـ أحاول دوماً ألا أعتمد على الحظ..

وضع المفتاح في جيبه إذن عندما فتح الباب أول مرة، وكانت من انشغال البال بحيث لم تنتبه إلى تلك الحركة.

ـ لحسن الحظ، الضباب في الخارج أشبه بالحساء كثافة، حتى محاولة السير إلى أقرب فندق لا تشكل نزهة.

ثم تقدّم إليها: ألا تظنين أنك مدينة لي باعتذار؟

ـ لا، فأنا، أولاً، لم أدعك إلى الدخول، وثانياً، أريد منك أن تخرج.

قالت ذلك بحدة وجرأة لم تكن تشعر بهما.

قال بهدوء يخفي وراءه غضباً جارفاً: بل ما أريده أنا هو المهم.

ثم تقدم نحوها خطوة أخرى، وإذا بها ترى، وكأنما في ذهنها عدسة

www.liilas.com

مكبرة، ترى شعره الأسود يندى بقطرات ضئيلة، وأهدابه طويلة معقوفة، وعينيه الخضراوين موشحتين بلون ذهبي، وعند زاوية فمه عضلة متشنجة.

وقفت تتأمل هذا الوجه الخشن الطافح بالحيوية، ثم أخذ رأسها بين يديه.

وجمدت في مكانها... خشيت أن يعانقها... تريده أن يعانقها...

حتى بعد كل هذا الزمن، وما فعله ليحطم حياتها بكل قسوة، بعد كل ذلك ما زال جزء منها يشعر بشوق عميق إليه أخافها حتى الموت. انتظرت وقد اكتسحتها موجة من المشاعر. لكنه بدلاً من أن يعانقها، فرك أول أذن، ثم الثانية، ثم وضع شيئاً في جيبه. دار رأسها لحظة قبل أن تدرك أنه نزع قرطيها.

همهمت تقول: ما الذي...

ضاعت منها الكلمات وتشتت ذهنها وهو يعانقها.

وقفت كالمسحورة وقد أغمضت عينيها... انتظرت في حيرة وارتباك وقلق... والعذاب يبرّح بها. ثم ابتعد عنها فجأة تاركاً إياها كالمجنونة.

فتحت عينيها بعنف. كان ينظر إليها بابتسامة صغيرة متوترة.

ـ وعدتك بألا أغادر الأريكة لذلك يستحسن أن نتوقف قبل أن يخرج الأمر من أيدينا.

سألته بعنف: لماذا فعلت ذلك؟

ـ ألا تعلمين؟

ـ لأنك كنت غاضباً مني؟

رفع حاجباً أسود: أتظنين هذا عقاباً؟

ـ أليس هو كذلك؟

ـ بل هو اختبار!

ـ اختبار؟

ـ أريد أن أعرف مقدار حبك لريتشارد...

رآها تعض شفتها، فأضاف برقة: وقد بدا لي أنه ليس كبيراً جداً.

ـ كيف توصلت إلى هذا الاستنتاج؟

فابتسم: إذا أمكنك التوقف عن التفكير فيه والتجاوب معي إلى ذلك الحد...

ـ ألم يخطر في بالك أنني تجاوبت بذلك الشكل لأنني كنت أفكر فيه؟

شعرت بالرضا وهي ترى ابتسامته الساخرة تتلاشى وفمه يتوتر.

فقالت: على كل حال، لا أرى مشاعري نحو ريتشارد تخصك بشيء.

قال وهو يعود فيخلع سترته: حسناً، إذا كنت سأتخلى عن ماسة «فان هامل»، فذلك لأن لديّ ما يهمني أكثر.

عادت إليها كل شكوكها السابقة، ودون تفكير، سألته: هل أنت مستعد حقاً للتخلي لريتشارد عن الماسة؟ أم أن هذا نوع من الألاعيب؟

فقال بهدوء: بل أنا مستعد تماماً لذلك.

ـ لماذا، بعد أن احتملت مشقة منافسته عليها؟ لا أفهم ذلك.

ـ الماسة لا تهم. إنها وسيلة فقط.

أصرت قائلة: ما هو المهم إذن؟ لماذا أنت هنا؟ وما فائدة هذا كله؟

ـ ألم تفهمي بعد، «جو»؟

دار رأسها لحظة للصدمة... أخذت أذناها في الطنين، وشعرت بالإغماء يهددها.

أخذ ينظر إلى شحوب وجهها الهائل، ثم قال فجأة: الأفضل أن تجلسي.

قادها إلى أقرب مقعد فأجلسها عليه، وجلس قبالتها ليتمكن من رؤية وجهها.

ـ أتعتقدين حقاً أنني لم أتذكرك؟

لا، ربما لم تكن تعتقد هذا حقاً، لكنها اطمأنت نوعاً ما إلى تظاهر كين بأنه لم يعرفها، فتعلقت بهذا الأمل، وأخذت تمثل الدور الذي وضعه لها، لأنها خافت من مواجهة الحقيقة. وبشكل ما، تمكنت من أن تجيب:

ـ حدث كل ذلك منذ زمن طويل، كما أننا لم نعرف بعضنا البعض سوى فترة قصيرة.

ـ لكنك تذكّرتني.

حاولت نسيانه بكل جهدها. . . لكنها تعلم الآن أنها ما كانت لتنجح في ذلك قط، وهو الذي يشكّل جزءاً من كيانها أينما كانت.

سمّرت عينيها على وجهه كالمنوّمة مغناطيسياً. السنوات لم تغيّر شكله. . الشيء الوحيد المختلف هو النضج البادي في شخصيته. جعلته خطوط الحزم والسيطرة على النفس المحيطة بفمه أكثر وجاذبية.

إذا كان كين جذاباً حينذاك، أكثر من العادة، فقد ازدادت جاذبيته الآن. وهو سيبقى وسيماً رائعاً حتى عندما يبلغ الثمانين.

سألها ساخراً: هل ترين أيّ فرق؟

هزت رأسها نفياً: لم تتغيّر البتة أما أنا فتغيّرت كثيراً.

فقال ببطء: بما في ذلك اسمك. كنت جميلة كالصورة، أما الآن فجمالك فاتن بالغ التأثير، لكنني لم أشك قط في أنك نفس المرأة.

ـ إذا كنت عرفتني على الفور، فلماذا لم تقل شيئاً؟

ـ كان الفضول يتملكني لمعرفة ما آلت إليه أحوالك. بدا لي بشكل واضح تماماً أنك لم تخبري «بومونت» شيئاً عني.

ـ لم أجد سبباً يدعوني لذلك.

ـ بل ثمة سبب قوي يدعو لذلك.

ـ في ظروف كهذه، قررت أن من الأفضل ترك الماضي خلفنا.

كان ذلك جزءاً من الحقيقة فقط، فهي أرادت تجنّب الحديث عن كين، كان ذلك أشبه بفتح جرح قديم لم يُشف بعد.

ـ رغم أنك وافقت على الزواج به؟

ـ كنت على صواب حين تكهنت بأننا لسنا مخطوبين منذ وقت طويل، لقد طلبني ريتشارد للزواج ونحن في طريقنا إلى حضور المزاد العلني فلم أجد وقتاً للتفكير والتصميم على ما عليّ أن أخبره به.

قال وهو ينظر إليها مفكراً: ولكن عندما ظهرت أنا، وقام بومونت بمهمة التعارف بيني وبينك، لماذا لم تعترفي حينذاك بأننا نعرف بعضنا بعضاً؟

نظرت إلى يديها المشتبكتين في حجرها، ثم قالت: عاملتني كغريبة فساورني الأمل في. . . ألا أضطر لذلك.

ـ إذا لم أطلعه على علاقتنا، فالاستمرار معه هو الخداع بعينه.

حاولت أن تشرح له الأمر: أعطيته وعداً، ولم أكن أعلم أبداً أنكما تعرفان بعضكما بعضاً.

ـ لكنك علمت بوجودي في قاعة المزاد.

ـ عندما أراد ريتشارد معرفة من هو منافسه في المزاد، تظاهرت بأنني لا أعرفك، ثم ذكروا اسمك. . . ظهر بشكل جليّ أن ليس بينكما مودة بعد ما حدث بقضية الماسة. وعندما سألني إن كنت أعرفك، تملكني الذعر وقلت: لا.

ـ فهمت، ولكن هل يعرفك فقط باسم اليزابيث كافنديش؟

ـ نعم.

ـ لماذا اخترت اسم كافنديش، بالذات؟

ـ كان اسم زميلة لي في المدرسة.

ـ متى غيرت اسمك؟

ـ عندما لحق بي مخبرك الخاص.

ـ تقولين ذلك بمرارة.

ـ لي الحق بأن أشعر بالمرارة.

ـ هذه وجهة نظرك أنت. لماذا هربت مني جو؟

ـ لا تناديني باسم «جو».

أثار هذا الاسم آلام الماضي في نفسها.

ـ أخبريني لماذا هربت؟

ـ أخبرتك بذلك في رسالتي لك.

ـ أخبريني مرة أخرى.

ـ أدركت أنني اقترفت غلطة كبرى.

ـ كان يجب أن تشرحي موقفك بشكل أفضل. إلا أنك لم تنتظري للتحدث إليّ، وإذا بك تهربين كالأرنب المذعور حالما أدرت ظهري. هل ظننت حقاً أنني سأدعك ترحلين بهذه السهولة؟

ـ ولم لا؟ حصلت على ما كنت تريده.

ضاقت عيناه: آه! وما الذي كنت أريده بالضبط؟

لعنت لسانها الجامح، ثم رفعت رأسها قائلة: لقد أدركت، متأخرة، أنك تزوجتني فقط لتنقذ أباك من قبضتي.

قال بنعومة: إبدال رجل غني بآخر؟ قولي لي من، أو ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟

لم تستطع إخباره بالحقيقة، فاعتمدت على النظرية القائلة بأن الهجوم خير وسائل الدفاع.

ـ هل تنكر ذلك؟

فقال بصوت كلسع السوط: أخبريني، جو، هل تنكرين سعيك للحصول على زوج ثري؟

ردت بحدة: وما الفائدة إن أنكرت ذلك؟

ابتسم باكتئاب: «لماذا إذن لم تبقي معي؟ لماذا تطلبين فسخ الزواج حتى دون أن تجربيّ الحياة الهانئة؟».

أرادت أن تسبب له من الألم قدر ما سببه لها، فقالت: كان البقاء معك ثمناً باهظاً ليس بمقدوري أن أدفعه.

ـ لم لا تعترفين بأنك خفت عندما علمت بشكل ما، أنني كشفت ألاعيبك الصغيرة؟

ـ إذا قصدت أنني أضمرت نوايا سيئة لهنري فأنت مخطىء.

ـ لا أظن ذلك... رغم مظهرك البريء للغاية، تشبثت بأبي كالعلقة، ولو لم أتدخل، لامتصصت دمه حتى آخر نقطة.

ارتجفت اليزابيث، بينما تابع يقول: ربما خُيّل إليك أنني، حيث أعيش في الولايات المتحدة، كنت أبعد من أن أعرف أو أهتم بما يجري، ولكن لأجل «بيري»، ولأجل أبي، شعرت بالحاجة إلى القيام بشيء.

ـ إن كان هذا هو رأيك بي، لماذا لم تحذّرني بكل بساطة؟ لماذا كلّفت نفسك الزواج بي؟

كان هذا هو الجزء الصعب من المسألة. قال وعيناه تنضحان قسوة وبرودة: لم أكن واثقاً من أنك ستصغين إلى التحذير وترحلين، كان أبي يحبك، وهكذا استطعت السيطرة عليه. بدا الزواج بك، وكأنه الحل الدائم.

ـ تكرر دائماً أن أباك كان مغرماً بي، لكن علاقتنا لم تكن من ذلك النوع على الإطلاق... حقاً لم تكن كذلك...

آه! ما الفائدة؟ ظنّها كين تسعى وراء الثروة وهي لن تتمكن أبداً من إقناعه بخلاف ذلك. وكمن يريد إثبات كلامه، قال: أخبريني، عندما قررت هجري، لماذا لم تحاولي طلب نفقة مالية قانونية؟

ـ لم أكن أريد نقودك. كل ما أردته حريتي.

ـ لماذا لم تواجهيني لتطلبي مني ذلك؟

ـ لأنني لم أشأ أن أراك.

بعد أن أدركت سبب زواجه بها، شعرت بالخزي لحماقتها وسذاجتها، ولم تستطع احتمال حتى التفكير في رؤيته مرة أخرى.

ـ كنت أرجو ألا أضطر إلى رؤيتك مرة أخرى في حياتي.

ـ أما أنا، فطوال السنوات الماضية، كنت أرجو العكس.

ـ ولكن لماذا؟ لا أفهم.

ـ ربما لأن الأمور لم تستقرّ بيننا، وأنا لا أحب ترك عمل قبل إتمامه. هل تصوّرت أن تغيير الاسم يحدث أيّ فرق؟ كنت سأعثر عليك مهما طال الزمن.

ـ أتعني أنك أرسلت مخبرين للبحث عني طوال هذا الوقت، ثم نلتقي

www.rewity.com

بمحض الصدفة؟

قال بنعومة: ليس بمحض الصدفة تماماً.

حملقت فيه: أكنت تعلم بأنني سأكون في المزاد؟

ـ كنت أرجو أن تكوني هناك، فقد رأيت قائمة بأسماء المدعوين واسم بومونت بينها.

ـ ولكن كيف لك . . .

ابتسم كين ساخراً: هنا لعبت الصدفة دورها، لقد رآك بييري . . .

بييري، أخو كين الأصغر غير الشقيق، الذي اعتبرته دوماً صديقاً لها . . .

ـ لقد قام بزيارة قصيرة لإحدى المبرّات الخيرية التي تعمل فيها اللايدي بومونت، فرآك هناك مع بومونت . . . ولكنه لم يكن واثقاً تماماً. في تلك الليلة، لحسن الحظ، ظهرت صورتكما معاً في إحدى المجلات على صفحات أخبار المجتمع. قطعها من الصحيفة وأرسلها إليّ. وهذا هو السبب الذي جعلني أترك كل شيء لأحضر هذا المزاد العلني.

ارتجفت رغم حرارة نيران المدفأة: ماذا لو لم تجدني هناك؟

هز كتفيه: لوضعت حينذاك خطة جديدة. بعد أن عرفت مكانك لم يعد في الأمر مشكلة، لكنني سررت عندما رأيتك معه . . . سهّل حضورك الأمور. لم يكن عليّ إلا أن أنتظر لأرى ما الذي يريد شراءه.

ـ ثم تهزمه في المنافسة.

قالت ذلك باستياء.

ـ تماماً. كنت أريد طعماً بفتح الطريق أمامي.

ـ فهمت قصدك حين قلت إن الماسة هي مجرد وسيلة.

ابتسم: تيسّرت الأمور اكثر مما كنت أرجو . . . لو أخبرت بومونت بالحقيقة، أو اعترفت له بأنك تعرفينني، لاتخذ حذره دون شك.

فات الآن وقت التمني. لو أنها كشفت الحقيقة، وتصرفت بشكل مختلف، لما كان كين الآن ضيفاً خطراً غير مرغوب فيه، في بيتها . . .

دقت ساعة الجدار الثانية عشرة والنصف، قاطعة عليها أفكارها. هبّ واقفاً وأخذ يتمطى كالهر، ثم مدّ يده يطفىء النور، تاركاً مصباحاً خافت الضوء ولهيب المدفأة.

ـ كان يوماً مرهقاً، وما دمت أجبت عن أسئلتك، إذا شئت . . .

انفجرت فيه بعنف: لم تفعل بعد . . . لم تخبرني لماذا كلفت نفسك كل هذا الإزعاج، ما الذي تعنيه (بالعمل الذي لم ينته بعد)؟ . . .

التفت إليها، قائلاً بنعومة: عزيزتي جو . . . أنت تعلمين بكل تأكيد.

تمتمت تقول: «لا تناديني بهذا الاسم، ثم لا، لا أعلم».

تنهد بشكل مسرحي: ما كنت قط بليدة الذهن، فأنا أتذكرك ذكية سريعة الفهم . . .

ـ إذن لم أعد كذلك. لا أفهم ما الذي ترجو الحصول عليه . . . ولماذا أنت هنا . . . أنت متزوج، وأنا سأتزوج قريباً، ثم إن . . .

ـ ثم إن خطيبك لن يعجبه أن أمضي الليلة معك.

قالت بحزم، متجاهلة استفزازه لها: سبق وأن قلت لك ذلك. أترى زوجتك سيعجبها الوضع؟

عاد يجلس وهو يبتسم ساخراً: يبدو أن ذلك لا يعجبها.

مضت لحظة استوعبت فيها معنى كلامه. ثم قالت بصوت متحشرج، وغصة في حلقها: أنت لا . . . أنت لا تعني أنني . . .؟

ـ أنك ما زلت زوجتي؟ هذا بالضبط ما أعنيه.

صرخت بيأس: لا، هذا غير ممكن. الزواج قد فُسخ.

ـ هذا ما تظنّينه، لم تنتظري لتري إذا كنت سأوافق.

ـ ولكن عندما أقسمت أنني لا أريد العيش معك كتب محامي الأسرة الأوراق الضرورية ووقعتها أنا.

ـ حسناً، أنا لم أوقّع.

ـ لماذا؟ لقد وافق محاموك على أن هذا أفضل ما يمكن عمله؟

علمت حينها أنه لا يحبها على الإطلاق.

www.rewity.com marmoria5555

قال عابساً: هذا ليس رأيي. لكن عندما أخذ الزمن يمرّ وفقدت أثرك، خشيت أن تظني أن الزواج فُسخ، وتتزوجي مرة أخرى.

وأضاف بلهجة راضية: يبدو أنني عثرت عليك في اللحظة المناسبة، فتعدد الأزواج جريمة خطرة.

ـ زواجنا لم يكن صحيحاً.

ـ أتعنين أنه كان صورياً غير مكتمل؟

احمر وجهها ورفعت رأسها متحدية: نعم.

ـ كلامك صحيح، رغم أن هذه الحقيقة لا تجعل الزواج غير قانوني.

قالت محتجة: لكنني وعدت ريتشارد بالزواج به.

قالت ذلك وكأن هذا كفيل بأن يمحو الماضي ويصحّح الأوضاع.

فقال: «تبيّن أن وعدك سابق لأوانه».

فصرخت لا تريد أن تصدق: لم تقل شيئاً حين كان يتحدث عن خاتم الخطبة.

سألها وهو يبتسم ساخراً: هل كنت تفضلين أن أقول له إنه يضيّع وقته لأنك ما زلت زوجتي؟

فأجفلت، بينما قال بسرعة: علمت أنك لن تتقبلي الوضع... وعندما قلت إن الزواج سيتم في الربيع، فكرت أن عليه أن يعلم بالأمر بسرعة.

همست ذاهلة: وكيف سأخبره؟

ـ هل يعلم أنك كنت متزوجة؟

ـ لا.

ـ إذن، مهما كانت طريقتك في إخباره بالأمر، سيشكل ذلك صدمة له.

بدا عليه عدم الاهتمام، لكنه ناقض ذلك بقوله: أشعر حقاً بالأسف على هذا المسكين.

قالت موشكة على البكاء: آه! لماذا لم تتمّم فسخ الزواج؟ لما كنّا

عانينا من هذا كله. أما الآن فستضطرب حياتنا جميعاً.

ـ أما زلت تريدين فسخ الزواج؟

ـ طبعاً أريد ذلك.

ـ وإذا لم أكن أريد؟

برد الدم في عروقها: يجب أن تفعل هذا. ارتباطك بامرأة لم ترها منذ خمس سنوات، سيمنعك من الزواج مرة أخرى.

ـ ومن قال لك إنني أريد الزواج مرة أخرى؟

ـ قلت لي مرة إنك تريد أسرة... وهذا يعني أنك ستتزوج مرة أخرى.

ـ افرضي أنني أعتبر تعهدات زواجي الأول مقدسة لا تحتمل النقض حسب الدين.

صرخت فيه بعنف: لا تقل إنك كنت صادقاً في تلك التعهدات... الأمر كله كان...

وسكتت فجأة وهي تعض شفتها، وبعد لحظة جذبت نفساً عميقاً، ثم عادت تقول بحزم: إذا لم توافق على الفسخ، سأتخذ كل خطوة ممكنة لإنهاء الزواج.

ضحك قائلاً: أحقاً؟ الوضع أشبه بفأرة تهدد بعضّ هرّ.

ـ لكنني لن أكون بمفردي، سيكون ريتشارد بجانبي دوماً...

رأت وجه كين يظلم لذكر ريتشارد وقد بدت عليه الغيرة، لا. لا بد أنها أساءت تفسير ذلك.. لا يمكن أن يكون غيوراً، الغيرة هي نتيجة مشاعر إيجابية منه نحوها، وهي لا تشك في أن شعوره نحوها لا يخرج عن البرودة والامتعاض، وقد يختلط طبعاً بحب التملك.

قال بفظاظة تثبت رأيها: كما سبق وقلت، لا مودّة بيني وبين بومونت، فهل تظنين جادة أنني سأدعه يأخذ مني ما هو ملكي؟

قالت مستنكرة بحدة: أنا لست ملكك، ولا أدري كيف يمكنك منعه. إذا حاولت مواجهته، عنده ما يكفي من المال والسلطة لمحاربتك.

ـ نعم، عليّ أن أهنئك لأنك تمكّنت من اصطياد رجل غنيّ آخر...

أجفلت اليزابيث وكأنها تلقت منه صفعة. ثم تابع بابتسامة قاسية: ولكن إذا علم بالحقيقة، فهل يضحّي بذلك الثراء وتلك السلطة لأجلك؟ هل ستبقى له رغبة بك بعد أن يعلم زوجة من أنت؟

كان ريتشارد قد اعترف لها بحبه، ولكن هل سيبقى على رغبته في الزواج بها عندما يعرف كيف كذبت عليه وخدعته؟ عندما يعرف أنها زوجة كين دارڤيل؟

لكنها لم تكن زوجته حقاً. احتفال استغرق عشر دقائق ووثيقة زواج لم يجعلاها زوجة، وخمس سنوات من الفرقة لا تشكّل زواجاً سعيداً.

قالت تحاول إخفاء شكوكها: أنا واثقة من أنه سيتزوجني.

ـ تبدين واثقة تماماً.

ـ نعم، أنا واثقة.

ـ وماذا لو غيّر رأيه؟

ـ سأبقى راغبة في التحرر منك بأسرع وقت ممكن.

ـ حسناً جداً، سنتحدث في هذا عند الصباح.

كانت تعلم أن كين ليس بالرجل الذي يستسلم، فشعرت بضيق مفاجيء وأقلقها استسلامه البادي أكثر مما لو عارضها، لكن عليها ألا تدعه يرى هذا. تمتمت وهي تقف: سأحضر بعض الأغطية للسرير.

عندما عادت ببعض الوسائد والبطانيات، رأته يخلع قميصه ثم يلقي به على كرسي.

كانت عضلات كتفيه العريضتين مشدودة، ولونه الأسمر يتألق تحت وهج نيران المدفأة. وجفّ فمها...

ألقت بما تحمله على الأريكة وتحوّلت لتهرب، وسواء كان ذلك مصادفة أم لا، فقد وجدته يسدّ الطريق أمامها.

قالت محولة نظراتها عنه: تجد المناشف في خزانة الحمام. إذا أردت شيئاً آخر، أخبرني.

ـ الأفضل أن تدّليني إلى الحمام لئلا أخطيء فأدخل غرفتك.

ـ إنه في أعلى السلم، يمكنك أن تستعمله قبلي.

قال بكسل دون أن يتحرك: إذن تصبحين على خير.

ـ تصبح على خير.

أرادت أن تمرّ بجانبه، فأجفلت عندما قبض على ذراعها: قلت إذا أردت شيئاً آخر...

وابتسم في عينيها المتسعتين الخائفتين، وقال وهو يلمس بيده الأخرى شفتيها: هل لديك فرشاة أسنان؟

تخلصت منه وهي تقول: تجد واحدة في الحمام.

لاحقتها كلماته الساخرة: نوماً هنيئاً.

تباً له. أخذت تفكر في ذلك وهي تسرع غاضبة إلى غرفتها ثم تغلق الباب خلفها. تعمّد أن يفعل ذلك لإثارة الاضطراب في نفسها.

نجحت في السنتين الماضيتين، في إقناع نفسها بأن التجاذب بينهما لم يعد بالقوة التي كانت تتصورها. خيّل إليها أنها حين تقابله لن تشعر بأي شيء وهكذا تكون قد انعتقت منه، لكن ارتجاف كيانها أرغمها على الاعتراف بأنها كانت مخطئة تماماً، فالانجذاب ما زال موجوداً، يشدّها إليه بنفس قوته السابقة. وبرغم تظاهرها بخلاف ذلك، فقد كان يعرف حقيقة شعورها بكل تأكيد، وهنا يكمن الخطر الحقيقي...

أخذت تخلع ثيابها مشوشة الذهن، وإذا بها تسمع خطوات كين تصعد السلم الخشبي. انتظرت وقلبها يخفق، وبعد لحظات سمعت باب الحمام يُفتح ويُغلق، ثم المياه تتدفق.

تنفست بارتياح.. أنهت خلع ملابسها، وارتدت قميص نومها، ثم جلست أمام مرآتها وأخذت تنزع الدبابيس من شعرها.

بدا وجهها البيضاوي في المرآة شاحباً، كما بدا الذعر في عينيها، وكأن رؤيتها لكين مرة أخرى بددت كل ثقتها بنفسها التي جاهدت لاكتسابها.

www.liilas.com

منذ خمس سنوات، كانت تظن أن حبها له ورغبتها فيه هما أجمل ما حفلت به حياتها. ولكن، بدلاً من ذلك، كادا يدمران حياتها، وما زال هذا ممكناً.

عندما أبعدت من ذهنها هذه الأفكار، سمعت خطواته تقف أمام بابها. كل الأبواب الداخلية قديمة الطراز دون أقفال. ماذا ستفعل لو دخل؟

حبست أنفاسها وهي تسمعه يقرع الباب. صاحت بصوت خائف: ماذا تريد؟

ـ أريد فقط أن تعلمي أن الحمام خالٍ.

كانت واثقة من أنها سمعته يضحك بصوت خافت وهو يهبط السلم.

* * *

وفتحت اليزابيث عينيها مكرهة على صباح غائم ما زال جوّه ضبابياً.

أخذت تتساءل، مذهولة قلقة، عما جعلها تستيقظ، وإذا بذكريات الليلة الماضية تعود إلى ذهنها. ولكن قبل أن تتمكن من تنظيم أفكارها، سمعت نقراً على بابها، فقفزت جالسة في الوقت الذي انفتح فيه الباب ودخل كين حاملاً صينية عليها الشاي والخبز المحمص.

كان يرتدي بنطلوناً أنيقاً وكنزة زيتونية اللون، وقد استحم وحلق ذقنه، وفرق شعره ناحية اليسار. عيناه صافيتان تتألقان عافية، وبدا لها يخطف الأنفاس وسامة وحيوية.

قال لها بمودة: صباح الخير.

أطبقت شفتيها بشدة وقالت: كنت أفضل ألا تدخل بهذا الشكل.

ـ قرعت الباب مرتين، وبما أننا متزوجان، فلا داعي للحشمة.

عندما رفضت النهوض، سألها: هل نمت جيداً؟

عند ذلك نهضت وهي تجيبه كاذبة: نعم، نمت جيداً.

لكنها في الحقيقة ظلت تتقلب في فراشها إلى ساعات الصباح الأولى، ولم تنم إلا بعد أن بزغ الفجر.

وضع الصينية على ركبتيها.

ـ شكراً.

قالت ذلك بجفاء وهي تنظر إلى الباب وكأنها تطلب منه الانصراف.

تجاهل طلبها الضمني هذا وجلس على حافة سريرها ومدّ يده يسكب الشاي.

لاحظت أن الصينية جاهزة لشخصين، فقالت بسرعة: أفضل أن تعيدها إلى المطبخ وسأنزل حالاً.

وضع فنجانه على المنضدة بجانب السرير ورفع حاجبيه: أتقولين ذلك لأنني جلست بقربك؟

ـ أفضل ألا تفعل هذا.

أخذ يتأمل شعرها الأسود الحريري، وقميص نومها المحتشم، ثم قال: لا تخافي، فأنا في ملابسي الكاملة بينما أنت محتشمة للغاية.

عندما لم تقل شيئاً، سألها ساخراً: ألم يحدث لكما، أنت وريتشارد، أن تناولتما الإفطار في الفراش قط؟

أجابت ببرودة: ليس من عادتي تناول الطعام في الفراش.

ـ لتكن هذه المرة استثنائية، إذن.

أخذت تنظر إليه وهو يدهن الخبز بالزبدة، فتذكرت يديه هاتين وهو يحتضنها بهما ويعانقها.

ـ أتريدين عسلاً أم مربى؟

أجفلت لسؤاله وشهقت: لا أريد خبزاً.

قال بحذر: «إذا كنت ما تزالين تريدين إنهاء زواجنا، علينا أن نتحدث في الأمر.. الإفطار هو وقت مناسب تماماً، وكما سبق أن ذكرت لك من قبل، لا أحب تناول الطعام بمفردي... فهل لي أن أقترح عليك الاختيار بين المربى والعسل، وتناول الشاي قبل أن يبرد؟»

كان، شأنه في كل شيء، يريد أن يسير الأمر حسب مشيئته.

قالت وهي ترفع فنجانها: «المربّى».

www.liilas.com

كلما أسرعا في الكلام، أسرع في الانصراف، وكأنما قرأ أفكارها، قال: لا أريد أن أتأخر . . . سأقصد «سالمارش»، أتذكرين «سالمارش»؟ .

قالت بجمود: «نعم» .

ـ يبدو أنك لم تتذكريها الليلة الماضية .

بدا أنه في انتظار جواب منها، فوجدت نفسها تقول: لم أعد قط إلى هناك .

ـ حتى ولا عندما اشتد المرض بأبي وطلب رؤيتك؟

ـ لم . . . لم أعلم . . .

ـ لقد قلب الأرض بحثاً عنك .

ـ أحقاً؟

ـ وقد مات منذ ستة أشهر .

شعرت بغصة في حلقها: آسفة، سواء صدقتني أم لا، كنت مولعة حقاً به .

في الوقت القصير الذي أمضته سكرتيرة لهنري دارفيل، كان قد أصبح أشبه بأب لها .

قال بجفاء: يبدو أن شعوركما كان متبادلاً، فقد ترك لك نصف أملاكه، ومحاموه يبحثون عنك .

* * *

٤ ـ صراع الأب والابن

فتحت اليزابيث فمها ذاهلة: ماذا؟

كرر قوله بفتور: ترك لك نصف أملاكه .

تملكتها صدمة: هل أنت واثق؟

ـ واثق تماماً . . . ومن المدهش رغم الجفاء الذي حلّ بيننا منذ تركك، أنه جعلني الوصي على الميراث الذي قسّمه بينك وبين بيري باستثناء قصر سالمارش وبعض مجوهرات الأسرة، وهذا ما تركه لي، كما ترك مبلغاً وافراً لمديرة منزله .

همست تقول: «آه، لا . » .

تبدّد الآن كل أمل كان يراودها في أن تتمكّن من إقناع كين بأنه أساء الظنّ بها . رفعت رأسها، شاحبة الوجه: لا أريد أمواله، وما أردتها يوماً . يمكنك أن تستعيدها، كان المفروض أن يتركها لك .

هز كين رأسه: حتى ولو لم نكن متخاصمين، أنا وهو، كان يعلم جيداً أنني لست بحاجة إليها .

ـ ليأخذها إذن، بيري .

ـ يملك بيري ما يكفيه . ربما ترتاحين إن علمت أنني حوّلت باسمه أموالاً طائلة عندما طرده أبوه .

سألته مجفلة: وما الذي جعل هنري يطرد ابنه؟ ما الذي فعله بيري؟

ـ كان دوماً يردد هذه الجملة أمامه! أنت العجوز الخرف الأكثر

حمقاً.

ـ أتعني أن بييري كان يعتبره . . .

ـ خرفاً مخبولاً؟ وماذا غير ذلك؟

ـ آه! يا إلهي . . .

تملك اليأس اليزابيث. كان الوضع أسوأ مما تصوّرت، فانفجرت تقول: حسناً، لا يهمني إلى من تذهب الأموال، لكنني لا أريدها.

قال لاوياً شفتيه بسخرية: ربما تغيرين رأيك إذا غيّر بومونت رأيه.

ـ حتى لو لم أتزوج ريتشارد، فأنا قادرة على إعالة نفسي.

ـ لا أشك في ذلك. لكن هنري ترك لك المال، ويريد أن تأخذيه.

ـ لا، لا يمكنني أخذه.

ـ إذن عليك أن تتصلي بمحاميه وتخبريهم كيف يتصرفون بها، من ناحية أخرى هناك قطعة مجوهرات أرجو أن تقبليها.

رآها موشكة على الرفض فأضاف يقول: عندما كان هنري على فراش الموت. . .

ـ هل كنت موجوداً؟

ـ أرسلوا بطلبنا، أنا وبييري. كانت الأسرة متفرقة منذ وقت طويل، ويبدو أنه أراد جمع الشمل قبل موته. ولسوء الحظ، عندما وصلنا، كان غير قادر على الكلام أو الكتابة بوضوح، لكنه جعلني أفهم أنه يريد منك أن تأخذي هذه الحلية بالذات. . . وهكذا إذا كان له كرامة عندك. . .

وترك كين الجملة غير مكتملة.

ـ لمن كانت تلك الحلية؟

ـ إنها حلية قديمة من حلى العائلة يعود تاريخها إلى أوائل القرن السادس عشر. أنت عملت مع أبي في كتابة تاريخ الأسرة، وعلمت أن آل دارڤيل جمعوا ثروتهم في البداية، من بناء السفن قبل أن يصبحوا أصحاب بنوك.

ـ نعم.

تابع يقول وهو يراقب وجهها كالصقر: حسناً، تعود الحلية إلى زوجة كريستوفر دارڤيل الذي ساهم في بناء السفينة «زهرة أيار».

ـ آه، لا أستطيع قبول شيء بمثل. . .

فقاطعها: دعيني أقول قبل أن تجادلي، إن تاريخ هذه الحلية بالذات هو الذي جعله يهديك إياها. فليس له قريبة أنثى قد ترغب فيها، أنت تعلمين أنه ليس لأبي سوى شقيق واحد. ماتت أمي منذ أكثر من عشرين عاماً، فتزوج والدة بييري التي هربت مع رجل آخر.

وأضاف بابتسامة كئيبة: لسبب ما، يبدو أننا لا نستطيع الاحتفاظ بنسائنا في هذه الأسرة.

أجفلت للمرارة البادية في صوته: رغم أنني لست من الأقارب، يسرني امتلاك هذه الحلية، ما دام هنري تركها لي.

بدا على وجهه تعبير غامض وهو يقول: إذن، سنذهب حالما تستعدين لذلك.

أجفلت قائلة: نذهب؟ إلى أين؟

ـ إلى «سالمارش».

ـ لا، لا أستطيع الذهاب معك.

لا تستطيع مجرد التفكير بالعودة إلى المكان الذي عرفت فيه معنى السعادة قبل أن يتحطم عالمها.

ـ عدا عن إحضار الحلية لك، هنالك أشياء أخرى أريد منك أن تريها.

ـ لا يمكنني في الواقع. . .

ـ هي ملكك.

وإذ هزت رأسها، قال: حدثت الأمور بسرعة، لذلك تركت خلفك في المنزل أشياء تخصك.

قالت بصوت مختنق: ربما سآخذ الحلية، وعدا ذلك لا أريد شيئاً.

ـ لا شيء؟

ـ لا شيء مطلقاً.

تصلب وجهه: هل أنت متأكدة من ذلك؟ يمكنني أن...

لم تعد تتحمّل الضغط، فصرخت فيه: أخبرتك بأنني لا أريد شيئاً منك.

ـ حتى ولا حريتك التي تطلبينها؟

ـ أتعني أنك سترضى بفسخ الزواج؟

حدّق إليها من خلال أهدابه الكثيفة السوداء: قد أرضى، إنما بشرط واحد.

ـ أي شرط؟

ـ أن تأتي معي إلى «سالمارش».

لماذا يصمّم هكذا على اصطحابها إلى سالمارش؟ ما الذي يفيده في ذلك؟ قد لا يصل إلى نتيجة... ربما كان يريد استعادة كرامته فقط، وإثبات تأثيره عليها.

لكنها سترفض مرافقته مهما كان السبب... لن تسمح له بابتزازها بهذا الشكل، فهو، إن لم يكن قادراً على منع فسخ الزواج، يستطيع حتماً أن يعقّد الأمور.

قال بهدوء وهو يراقب المشاعر المتعاقبة على وجهها: الخيار لك.

ـ لم تستطع حزم أمرها، فقالت في محاولة لكسب الوقت: من يعيش هناك الآن؟

ـ مديرة المنزل فقط. بعد موت أبي، أخرجت بقية الخدم.

أحست فجأة بذعر غريب: هل تفكر في بيع المنزل؟

ـ ولم لا؟ عدا عن مديرة المنزل التي مكثت في «منزل سالمارش» أكثر من ثلاثين عاماً، لا يبدو أن أحداً يهتم بالعيش فيه. وبفضل المال الذي تركه لها أبي تستطيع أن تعيش برخاء ما تبقى من عمرها، وعندما تزوج بيبري...

ـ وهل تزوج بيبري؟

ـ تزوج «غيما بوكان» منذ ثلاثة أشهر، وهي البنت الصغرى للورد

«بوكان».

فسّر هذا الخبر سبب وجود بيبري في المؤسسة الخيرية، فاللايدي يومونت واللايدي بوكان صديقتان، وتابع كين قائلاً: عندما تزوج بيبري، عرضت عليه «منزل سالمارش» كهدية عرس، لكنه يمضي أكثر أيامه في المدينة مما يجعل إقامته في «سالمارش» غير عملية، وهكذا يبقى المنزل خالياً.

ـ لماذا تبيعه؟ لست بحاجة إلى مال.

ـ وما فائدة إبقائه؟

ـ كان هنري يحبه جداً وما كان ليرضى ببيعه...

ثم قالت بلهفة: ألا يعني لك شيئاً كونه منزل الأسرة منذ أجيال؟ أعرف أنك اخترت الحياة في الولايات المتحدة معظم حياتك، ولكن من المؤكد أنك...

فقاطعها: أتعلمين لماذا اخترت الحياة في أميركا؟

هزت رأسها نفياً.

ـ إذن حان الوقت لأخبرك عن طفولتي... عندما تعارف أبي وأمي، كانت هي في الثامنة عشرة وهو في الثالثة والثلاثين. وماتت أمي عندما كنت في الرابعة والنصف من عمري، وتركتنا، أنا وأبي وحدنا. وفي الخريف التالي تعرّف إلى فتاة سوداء الشعر تدعى «بيث» ووقع في غرامها. رفضت الزواج به لكنها قبلت أن تقيم معنا، كانت جميلة جداً ورقيقة فأحببتها أنا جداً، وكنت واثقاً من أنها تحبني، وما أن بدأت أشعر بالاستقرار مرة أخرى حتى قبلتني ذات يوم قبلة الوداع ورحلت. وفي السنة التالية، دفع شعور الوحدة أبي إلى الزواج مرة أخرى من امرأة حمراء الشعر تدعى هيلين، لكن الأمور هذه المرة، اختلفت. كرهت أنا زوجة أبي كما كرهتني هي. لا أستطيع لومها فقد كنت صبياً غريب الطباع وغيوراً جداً...

لماذا يخبرها كين بكل هذا بينما لم يعد ذلك يهمها على الإطلاق؟

www.liilas.com

لكنه كان يتابع قائلاً: عندما ولد بيبري، تحوّلت الأمور من سيء إلى أسوأ، فقد حظي بكل الاهتمام، وازداد شعوري بأنني غير محبوب ولا مرغوب فيه. أصبحت الحياة معي صعبة، وذات يوم. قالت هيلين لأبي إنها لم تعد تستطيع احتمالي وعلى أحدنا أن يرحل من البيت.

وابتسم كين بكآبة في وجه اليزابيث المذعور.

ـ آه، نعم. كنت صغيراً ومن الحماقة بحيث ظننت أبي سيختارني أنا للبقاء معه. ولم أدرك مبلغ صعوبة الوضع الذي واجهه حينذاك إلا بعد أن كبرت، فقد قرّر أن الحل الأمثل هو إرسالي إلى مدرسة داخلية. عند ذلك اقترح عمي ويليام المتزوج من أمريكية، الذي كان يدير فرع بنك الأسرة في بوسطن في أميركا أن يأخذني للعيش معه فترة. ترك أبي لي الخيار، فاخترت الذهاب إلى بوسطن. وكان اختياراً موفقاً، فقد منحني عمي وزوجته اللذان لم ينجبا أولاداً، من الحب والرعاية ما يتمناه كل ولد، وأصبحا كوالدين لي. وعندما تركت هيلين أبي وابنها بيبري لتهرب مع رجل آخر، سألني عمي وزوجته إذا كنت أريد العودة إلى بيتنا، فرفضت... كنت اعتبر بيتهما في بوسطن بيتي، ولم أعد إلى لندن، ولو للزيارة، إلى أن كبرت.

ثم سألها بنبرة متحدية: والآن، أما زلت تتوقعين مني أن أهتم بهذا المنزل؟

ـ أتفهّم الآن تماماً شعورك بالغضب والمرارة.

ـ لم أعد أشعر بذلك الآن. ثم لا تظني أنني أكره أبي وبيبري.

تملكتها موجة مفاجئة من الكآبة، لا... فهي ما زالت تذكر ما فعله ليساعدهما ويحميهما، لا يمكن أن تظن ذلك أبداً.

ـ رغم أننا كنا طوال تلك السنوات غرباء فعلاً عن بعضنا البعض... كنت أشعر بالاستياء وأبي بالذنب وبيبري بالغيرة... إلا أننا سرعان ما عدنا فانسجمنا معاً. وعندما ظهرت أنت على مسرح الأحداث كنا نعيش متقاربين كأي أسرة طبيعية.

ودون إدراك منها، شتتت هي ذلك التقارب.

أضاف يقول بحدة: رغم أنه من غير الطبيعي أن يُغرم الأب والابن بالمرأة نفسها.

ـ هذا غير صحيح.

ـ لا يمكنك أن تنكري أن أبي كان مغرماً بك... أما أنا فكان يفترض بي أن أكون أكثر تعقلاً في تلك الظروف إلا أنني فقدت صوابي وأغرمت بك.

كل ما يقوله غير صحيح، فقد أحبها هنري كابنة له... أما كين، فرغم قوله هذا، لم يكن يهتم بها مثقال ذرة.

كررت تقول: هذا ليس صحيحاً.

ـ غير صحيح؟

شعرت اليزابيث بالعجز والهزيمة. هذا الجدال مجرد مضيعة للوقت فقالت بضعف: على كل حال، انتهى كل ذلك ومضى، هنري مات، وزواجنا سيُفسخ قريباً.

قال يذكرها بابتسامة غامضة.

ـ هذا يعتمد على قرارك بمرافقتي إلى سالمارش أم لا.

ثارت كل ذرة من كيانها على هذه الفكرة، كيف يمكنها أن تذهب وتثير كل تلك الذكريات المؤلمة التي تنتظرها هناك؟ كان كين يراقبها، متنبهاً إلى كل ما تفكر أو تشعر به.

ولكن لأجل ريتشارد، كما لأجلها، أرادت أن تيسّر كل شيء، حتى إذا سارت الأمور على ما يرام يمكنها أن تصبح حرة وتتزوج في الربيع... هذا إذا بقي ريتشارد راغباً في الزواج بها عندما يعلم الحقيقة.

ولكن اليزابيث كانت مصممة على أن تفسخ هذا الزواج المهزلة سواء رضي ريتشارد بالزواج بها أم لا. فهي تريد أن تخرج كين من حياتها بأسرع ما يمكن، حتى لو كلفها ذلك ان تستجيب لطلبه وتذهب معه. سيمضيان هناك فترة قصيرة فقط، ومدبرة المنزل ما زالت تعيش فيه،

www.rewity.com
marmoria555

وهكذا لن يكونا بمفردهما . . .

أخذت نفساً عميقاً، ثم قالت موافقة: حسناً جداً، سآتي معك.

وأمعنت النظر إلى ملامحه لتستشفّ أي شعور بالانتصار، لكن وجهه بقي جامداً وهو يقول: ربما تذكرين أنه لا يمكننا سلوك الطريق إلى الجزيرة إلا أثناء حركة الجزر، لذلك يستحسن عدم إضاعة الوقت.

قالت: «إذن أرجو أن تنتظر في غرفة الجلوس ريثما أغيّر ملابسي».

راحت تقنع نفسها بصواب تصرفها، لكن حاسة سادسة أنذرتها بالخطر. عندما هبطت السلم إلى الطابق الأسفل، لم تر أثراً لكين، وعندما فتحت الباب رأته ينتظرها عند السيارة. كان يرتدي بذلة بنية اللون وشعره يبدو جعداً قليلاً في الجوّ الرطب وهذا ما جعله يبدو غاية في الوسامة والجاذبية وأصغر من سنه البالغ اثنين وثلاثين عاماً.

بذلت جهداً لتتمالك نفسها وهي تراه ينظر إليها فيخفق قلبها. كانت نظراته تتنقل من الطقم الرمادي والبلوزة الحريرية إلى حقيبة اليد الأنيقة والحذاء الجلدي الجميل. أما شعرها فكانت قد رفعته في «شينيون» أنيق.

قال وعيناه تلمعان: أراك بالغت في التأنق لأجل يوم عادي على الساحل.

سألته بهدوء متجاهلة تهكمه: أما زال مفتاحي معك؟

ثم تنهدت بارتياح عندما ناولها إياه بوداعة الحمل. لا شك في أنه سيعيدها إلى بيتها، وهذه المرة ستكون حذرة. لن تسمح له بتجاوز العتبة، لذلك يستحسن أن تبقي المفتاح معها.

أغلقت الباب خلفها وانطلقا.

لم تتذكر أنها نسيت ساعة يدها في البيت إلا بعد أن قطعا مسافة طويلة. أعاقهما ازدحام السير عن الخروج من لندن أكثر مما كانا يتوقعان، لكن لم يبدُ على كين أي فروغ صبر.

اضطربت مشاعرها لقربها منه فحاولت إخفاء ذلك بالنظر في النافذة.

قال ساخراً: «المناظر خلاّبة».

رفعت رأسها قائلة: «أحب منطقة «أسكس».

ـ هل أعجبك العيش في جزيرة سالمارش مع فتى في الثامنة عشرة وعجوز على كرسي بعجلات؟

صرّت بأسنانها ورفضت الإجابة.

رمقها دون أن يلتفت إليها، ثم عاد يقول: كنت تساعدين هنري في البحث عن تاريخ الأسرة فلا بد أنك تعرفين الكثير عن الجزيرة.

أجابت بهدوء: أعرف أن تاريخها، منذ مئات السنين، لم يذكر سوى إقامة سدّ على الشاطىء لصدّ حركة المدّ.

ـ والمنزل؟

ـ عندما كنت أساعد أباك في دراسة بعض المستندات، اكتشفنا أن «منزل سالمارش» كان يستعمل منارة.

ـ هذا يفسّر البرج، عندما كنت صبياً كنت أظن أن المنزل يبدو كقصر.

ـ كان يُعتبر قصراً وقد أصبح قلعة بكل تأكيد، فقد حوى مدافع موجهة نحو البحر. وأثناء الجزر، كانت الرمال المتحركة الخطرة كفيلة بمنع أي هجوم بري.

قال: «لا بد أنك كنت تستمتعين بهذه الأبحاث. . . كيف أصبحت سكرتيرة لأبي؟».

ـ أتعني أنني خطّطت لذلك؟

ـ وهل فعلت ذلك؟

ـ لا، لم أكن سمعت قط باسم هنري دارڤيل، هو جاء إليّ.

ـ هكذا بشكل غير متوقع؟

ـ نعم.

وإذ رأت عدم التصديق على وجه كين، أضافت: كنت تخرجت لتوّي من الجامعة، رحت أبحث عن عمل عندما اتصل بي «بيتر كارادين» أستاذي في مادة التاريخ في الجامعة، وكان زميلاً لأبيك في المدرسة.

www.liilas.com

ـ تابعي كلامك.

ـ عندما اقتضت حالة هنري الالتزام بكرسي العجلات، قرر أن يقوم بأبحاث عن تاريخ أسرة دارثيل. احتاج إلى من يساعده، فذهب إلى صديقه القديم يسأله إن كان يعرف شخصاً مناسباً لذلك، فذكر بيتر كارادين اسمي له.

قالت بغضب وهي ترى الشك في عينيه: يمكنك أن تتأكد من حقيقة الأمر إذا شئت.

قال هازئاً: «قد أفعل هذا، وإن كنت لا أدري كيف تقبل خريجة التاريخ بالعمل كسكرتيرة».

تلاشى غضبها وهي تقول بفتور: قيل لي إن العمل في مجال اختصاصي قليل جداً، لذلك دخلت المعهد لدراسة الاختزال والطباعة على الآلة الكاتبة.

ـ يبدو أنك استعملت حرفة أقوى تأثيراً.

قالت بجفاء: «لا أدري ماذا تقصد».

ـ بل أظنك تدرين.

ما فائدة الاحتجاج وإثبات براءتها؟ وتملكها الاكتئاب... كان مقتنعاً بأنها تعمدت الإيقاع بأبيه، ويبدو أن ما من شيء يقنعه بأنه مخطىء.

تنهدت، وعادت تنظر من النافذة. أصبحا الآن على مقربة من الساحل، واليزابيث مستغرقة في أفكارها غافلة عما يحيط بها، أوقف كين السيارة وهو يقول: لقد تأخر بنا الوقت. ما رأيك في تناول الغداء؟

انتبهت، فرأت أنهما أمام استراحة في إحدى الطرق الهادئة التي تحيط بمدينة سالمارش الصغيرة وتؤدي إلى الساحل.

قالت معترضة وقلبها يخفق: هل لدينا وقت كافٍ للغداء؟

قال ببساطة: علينا أن نأكل شيئاً.. قلت لي مرة إنك تحبين هذه الاستراحة، أتذكرين؟

وقوفه أمام هذه الاستراحة لم يكن مصادفة. ارتجفت وذكريات

الماضي السعيدة تمتزج بالحذر والذعر وهي تجد نفسها مرة أخرى هنا في ظروف مختلفة تماماً.

سألها وهو ينظر إلى وجهها: من المؤكد أنك لم تنسي إقامتك هنا ذات ليلة؟

لا... لم تنس. كانت هي وكين عائدين من لندن ذات مساء، وقد فاتهما الجزر وجعلهما غير قادرين على اجتياز الطريق إلى الجزيرة، وهكذا اضطرا للمبيت في الاستراحة.

حجز غرفة واحدة بكل هدوء، ومع أنها كانت عديمة الخبرة، وغارقة في الحب، وواثقة من أنه رجلها، لم تعترض على ذلك.

عندما شبكت يديها وبقيت صامتة، سألها: ألا تذكرين السرير ذا الأعمدة الأربعة؟ وساعة الجدار الأثرية؟

ـ لا، لا، لا أذكر شيئاً.

كانت تكذب وهو يعلم ذلك. عاد يسألها بمكر وهو يرى تلوّن وجهها: حتى ولا سقف الغرفة المرسوم عليه عرائس البحر؟

عندما ازداد احمرار وجهها، نزل من خلف عجلة القيادة واستدار حول السيارة ليفتح لها الباب.

وعندما رافقها إلى باب الاستراحة، عاد يقول: هناك سبب آخر لاختياري هذا المكان، وهو أن لديهم جدولاً بأوقات المدّ والجزر لأعرف وقت حدوث الجزر.

ـ وماذا لو فاتنا الموعد؟

ما إن ألقت هذا السؤال حتى ندمت عليه.

هزّ كتفيه قائلاً: يمكننا قضاء الليلة هنا، ثم نعبر في الصباح.

تملكها الذعر: لا، لا يمكنني قضاء الليل هنا، ريتشارد...

ـ ريتشارد في أمستردام، لن يعلم بذلك.

تمالكت نفسها وقالت: غالباً ما يتصل بي تليفونياً أثناء غيابه.

ـ هل تجلسين عادة في المنزل تنتظرين؟

www.rewity.com

ـ نعم.

تمتم شيئاً لم تسمعه، لكنها رأت فمه يتوتر منذراً بالسوء، فشعرت بسرور حاقد لنجاحها في إغضابه.

كانت النيران تلتهب في مدفأة قاعة الجلوس، كما كان الجوّ مفعماً برائحة حطب شجر التفاح، والمكان خالياً إلا من هرة ناعسة أمام المدفأة. جلست اليزابيث إلى مائدة هناك، وخلع كين سترته ووضعها على مسند كرسي، ثم ذهب ليدرس حركة مياه البحر.

سألته بقلق وهي تتذكر ما قاله عن مبيت الليل: هل كل شيء على ما يرام؟ هل يمكننا العبور؟

ـ لا مشكلة على الإطلاق.

ما إن أنهى كلامه، حتى برز من خلف المقصف رجل حسن الهيئة، وتنهدت اليزابيث بارتياح عندما رأت أنها لم تره من قبل.

قال ببشاشة: «الطقس رديء».

ـ نعم، فالضباب لم ينقشع تماماً.

قال صاحب الاستراحة: «لا عجب فالنشرة الجوية تقول إن هذا الجوّ قد يدوم أياماً، رغم أن كلامهم ليس دوماً صحيحاً».

طلب كين من الطعام، الأنواع نفسها التي كانا تناولاها في زيارتهما السابقة، وأدركت أنه لسبب يعرفه وحده، يريد أن يشيع الاضطراب في نفسها. لكنها ستفسد عليه خطته هذه.

أشاع وصول أطباق الطعام الاضطراب في نفسها... أخذت تحدّق إلى طبق المحار المدخّن، والخبز المحمص المقطع، فتذكرت المرة الماضية. سألها كين بابتسامة أغاظتها وهو يرى ترددها:

ـ ألا تحبين المحار المدخّن؟

وعادت بها الذكريات... كان حينذاك في السابعة والعشرين، جذاباً حسن المظهر وثرياً بجهدّه الخاص، وذا دراية بأحوال العالم، وهي طالبة في الواحدة والعشرين ظلت مفلسة حتى تعرفت بهنري دارڤيل... كما لم

تكن رائعة الجمال.

شعرت وقتها أنها صغيرة السن وبلهاء، واعترفت تقول: لا أدري! لم أجربه من قبل.

ـ هل تنقصك روح المغامرة؟

ـ بل ينقصني المال.

بدت البرودة في عينيه لحظة واحدة رفع بعدها حاجبيه باهتمام اكتسب به ثقتها، فقالت: قضى أبي معظم حياته غير قادر على العمل بسبب مرض قلبه. عشنا في منزل حقير تجاهد لرفع نفقات معيشتنا. لم يكن في حياتنا مكان للترف.

ـ ومنذ ذلك الحين؟

ـ مثل معظم الطلاب، تعودت على أكل الفاصوليا أكثر من المحار المدخّن.

بدت التسلية في عينيه وهو يقول: ستجدينه أحسن من الفاصوليا.. لم لا تجربينه؟

قالت معترفة: لا أعرف كيف يؤكل.

ـ سأعلّمك.

وضع واحدة منها على قطعة خبز محمصة ومدهونة بالزبدة، ثم لقمها إياها بيده. كانت حركته هذه حميمة عاطفية جعلتها تشعر بكل ما أرادها أن تشعر به...

ارتجفت اليزابيث وهي تنتزع نفسها من الماضي، عائدة إلى الحاضر. ثم رفعت نظرها لتجده يراقبها بعينين لامعتين. رفع حاجبيه: «ألا تتذكرين كيف يؤكل؟ دعيني أريك».

ثم وضع محارة على قطعة خبز وقدمها إليها.

لم تكن تنوي أخذها، ولكنها فتحت فمها أشبه بالمسحورة، ثم رأت ابتسامته الساخرة.

تباً له... تملكتها المرارة وهي تقاوم دافعاً يدفعها إلى بصقها في

وجهه الوسيم.

سألها: «هل أعجبك طعمه؟».

أجابت بفتور: «ليس تماماً، آسفة لأن ذوقي تغيّر».

قال برقة: «في كل شيء؟».

بان احمرار خفيف في وجنتيها، وتظاهرت بأنها لم تسمع هذا السؤال الحافل بالمعاني.

أخذ يتأملها بعينين لامعتين: هل ترفضين الإجابة؟ حسناً، يسرني أن أسمع ردك.

تسارعت دقات قلبها فجأة، لكنها حاولت إخفاء شعورها وهي تحدث نفسها بأنه لا يقصد سوى إغاظتها.

وكأنه يعلم تماماً تأثير كلماته عليها.. ابتسم قليلاً ثم التقط شوكته وابتدأ يأكل. تناولا الطعام بهدوء دون مزيد من الإثارة.

شعرت بالارتياح عندما أنهيا القهوة واستعدا للخروج، كل ما تريده هو أن تنتهي من هذه الزيارة إلى منزل سالمارش في أسرع وقت ممكن.

في الخارج، رأت اليزابيث أن الضباب قد ازداد كثافة وساءت حالة الجوّ. بعث مزيج البرد القارس والتوجس الرجفة في كيانها: علينا ألا نتأخر في العودة.

قال وهو يصعد إلى خلف المقود: لا.

كانت الأراضي قاحلة جرداء دون لون على جانبي الطريق إلى سالمارش. لم يكن الساحل جميل المناظر إلا أن له سحره الخاص. أثناء الأشهر القليلة التي أمضتها اليزابيث هنا، أحبت هذا الشاطىء كثيراً.

جاء كلامه صدى لأفكارها: إن له جمالاً خاصاً خلاباً.

ـ نعم، هذا صحيح.

قطعا مئات الأمتار حتى راحت الطريق المنحدرة نحو البحر تتلاشى تدريجياً.. كان البحر هادئاً رمادياً بلون الرصاص. وفي نهاية الطريق الذي حجب الضباب نصفه، ظهرت جزيرة سالمارش البيضاوية الشكل.

أوقف كين السيارة واتكأ بساعديه على عجلة القيادة ومضى يحدق في المنزل الفخم المستطيل الشكل وبرجه القصير المتين.

أخذت تتأمل كين خلسة، فلاحظت الجدّ البادي على ملامحه وتساءلت عما تراه يفكر فيه. لم يكن يعتبر «منزل سالمارش»، باعترافه هو، البيت العائلي المثالي، وذلك منذ طفولته، لكنه يحمل الكثير من ذكريات طفولته الأولى، السعيدة منها والحزينة.

حلّ الغروب مبكراً فبدا المنزل في عيني اليزابيث وحيداً موحشاً منعزلاً إلى درجة لا تحتمل. ربما راودها ذلك الإحساس لأن هنري لم يعد هناك... قد تكون تنهدت بصوت مرتفع لأن كين التفت إليها قبل أن يعود للتحرك بالسيارة.

سارا بالسيارة فوق الطريق الذي كانت تقوم على جانبيه أعمدة قصيرة بيضاء، ومرّا بمينائه للزوارق، ثم صعدا طريقاً مبلطاً يؤدي إلى المنزل. ثم دخلا مرآباً للسيارات بجانبه شقة للسائق.

أوقف كين السيارة، وباهتمام ورقة بالغين، ظنّتهما يوماً دليل حب، استدار حول السيارة نحو بابها يفتحه ويساعدها على النزول.

كانت تتوقع خروج مدبّرة المنزل للترحيب بها، لكن المنزل بدا لها مهجوراً. قالت بضيق: «ألا تعرف مدبّرة المنزل».

ـ مدبّرة المنزل ليست هنا مع الأسف.

ـ ليست هنا؟ لكنك قلت إنها ما زالت تعيش هنا.

ـ هذا صحيح، لكنها خضعت لعملية جراحية وهي تمضي فترة نقاهة في بيت شقيقتها.

قالت بجمود: «آه! ولماذا لم تخبرني؟».

أجاب بهدوء: «هل كان قرارك سيختلف».

قالت بحدة وضيق: «أتمنى فقط لو كنت أعلم».

ـ أتعنين أنك لو علمت لما جئت؟

انفجرت تقول: لا، ما كنت لأجيء.

ـ آه، حسناً، نسيت أن أذكر لك هذا.

قالت تتهمه: لم تنس، بل تعمّدت إخفاء ذلك عني.

ـ ولماذا أفعل شيئاً كهذا؟

لكنها لم تجرؤ على التفكير.

* * *

٥ ـ تواجه الذكريات... وأشياء أخرى

فتح كين الباب الحديدي الثقيل، ثم أشار إلى اليزابيث بالدخول إلى الردهة... كان الخشب يكسو جدرانها ويبطن كل جدران المنزل.

دخلت كارهة. بدا كل شيء مألوفاً لديها إلى حد مؤلم. كانت نافذتان مستطيلتان تنيران الردهة، وإلى اليسار مدفأة واسعة من الحجر وفي الوسط سلم من خشب السنديان يصعد متلوياً وبجانبه مصعد خاص للكرسي المتحرك.

كان البرد قارساً، ومع أن الأثاث ما زال لامعاً، إلا أن رائحة مادة الصقل المكوّنة من شمع العسل، كانت مفقودة.

ـ بالإذن منك لحظة، سأشغّل جهاز التدفئة المركزية.

تركها كين متجهاً إلى المطبخ، بينما بقيت مكانها وقد تملكها الضيق والتردد.

عاد بسرعة وهو يقول: لن يلبث الدفء أن يعمّ المكان، سأشعل كذلك مدفأة المكتب.

وعندما ابتعد، تبعته بقولها: لكننا لن نمضي هنا وقتاً نحتاج فيه إلى إشعال المدفأة.

ـ ثمة أوراق خاصة لأبي، كما لم أفتح بعد خزنته. وبما أننا سنبقى هنا فترة، الأفضل أن نشعر فيها بالارتياح.

www.rewity.com

كان المكتب المؤلف من غرفة جلوس ومكتب ومكتبة، عبارة عن غرفة فسيحة فاخرة الأثاث تغطي أرضيتها سجادة قرمزية وتكسو جدرانها ستائر مخملية سميكة. وهي تقع في الناحية البحرية من المنزل، تطل على البحر من نافذة واسعة مقوسة. كان المكتب غرفة هنري المفضلة.

كان الحطب في المدفأة جاهزاً، وعندما ارتفع اللهب في المدفأة، جذب كرسياً جلس عليه أمام النار وهو يقول لها: اجلسي واعتبري نفسك في بيتك.

رأى كين نفورها ولاحظ كيف تنظر ناحية الباب، فقال: أم لعلك تفضلين الابتداء بغرفتك التي ما زالت كما تركتها.. فإذا شئت تفقد أغراضك، كما سبق واقترحت عليك...؟

هزت اليزابيث رأسها، لقد مضت تلك الحقبة من حياتها إلى غير رجعة.. لم تكن تريد ما يذكرها به، فقالت: لا داعي فأنا لا أنوي أخذ شيء منها معي. إذا كان فيها شيء ثمين، أعطه لمؤسسة خيرية.

قال بلهجة لاذعة: إذن، عوض أن تتململي قلقة اجلسي وتحلي بالصبر ريثما أبحث عن الأشياء.

خلع سترته ثم جلس خلف مكتب أبيه، وأضاء المصباح. وجلست على كرسي وأخذت تنظر من النافذة إلى شفق الغروب فوق البحر.

تفادت النظر إلى كين، إلا أنها كانت منتبهة إلى كل حركة يأتي بها، تسمعه يفتح الدرج ويتصفح الأوراق.

نظرت إليه خلسة، من تحت أهدابها الطويلة. كانت وسامته خشنة مليئة بالرجولة، وهذا ما جعله مثال الرجال ومعشوق النساء.. كان يعرف أنه يجذب النساء اللواتي غالباً ما يدرن رؤوسهن للنظر إليه، إلا أنه لم يكن يظهر أي غرور ولا حاول مرة تشجيعهن.

أخبرها مرة أنه لا يحب تبديل رفيقاته غالباً، فهو رجل امرأة واحدة... صدقته، ودعت الله أن تكون هي تلك المرأة، وأن تكون حبه الوحيد وأم أولاده.

أخذت تتأمل وجهه المنحني على الورق وقد فاض قلبها ألماً ومرارة وشوقاً تأملت الحاجبين الأسودين الكثيفين المقطبين اهتماماً وتركيزاً، الأنف المستقيم الخشن، والجفنين الثقيلين والأهداب الكثيفة السوداء.

كان النظر إليه ذات يوم حيوياً بالنسبة لها، تماماً كالهواء، وقد جعلتها حماقتها تظن أنه يبادلها شعورها. يا ليته فقط كان يحبها! شعرت بعدم جدوى الشوق إلى ما كان يمكن أن يحدث، وأحست بفراغ كئيب...

سقطت خصلة من الشعر على جبينه، فمدّ يده يزيحها رافعاً بصره، والتقى بعينيها.

أشاحت نظرها عنه بسرعة نحو المدفأة، ثم خلعت حذاءيها ووجهت قدميها نحو دفء النار وما لبثت أن خلعت سترتها، ثم أسندت رأسها إلى ظهر الكرسي تنظر إلى الصور التي يرسمها اللهب بينما تنتظره حتى ينهي مهمته.

* * *

أخذت اليزابيث تحلم بأن كين يعانقها... كان عناقاً خفيفاً أفعمها سعادة. بدا الحلم حقيقياً تماماً، وشعرت به يطالب أن تتجاوب وكان هذا ما هي على أتم الاستعداد لمنحه.

تمتمت بسرور وهي تمدّ ذراعيها.. ما إن لمسته حتى شهقت وفتحت عينيها... كان فتى أحلامها أمامها منحنياً فوقها، يداه على جانبي الكرسي، ووجهه قريباً من وجهها.

أزاحت رأسها جانباً بعنف وهي تصرخ به: ما الذي تفعله؟

ـ فقط أوقظ الأميرة النائمة، كما في الحكاية.

ـ لا أريد أن تعانقني.

ـ لكنك عانقتني منذ لحظة.

لم تستطع الإنكار فسكتت.

استقام في وقفته، ثم عاد يجلس على كرسي أمامها وعيناه على

www.rewity.com marmoria5555

وجهها المتوهج. نظرت حولها نصف غافية فرأت الستائر مسدلة والغرفة لا ينيرها سوى مصباح ونيران المدفأة.

رأت مصباح المكتب مطفأ، فسألته: هل انتهى عملك؟

ـ حالياً فقط.. أردت أن أستريح قليلاً بجانب النار.

أدركت أنه كان جالساً ينظر إليها أثناء نومها، وأزعجها ذلك وتملكتها قشعريرة. كم بقي يراقبها؟ وكم ظلت نائمة؟

وكأنها صرحت بأفكارها علناً.. قال ساخراً: رغم نومك جيداً الليلة الماضية، لا بد أنك متعبة. وضعت حطباً في المدفأة أكثر من مرة دون أن تتحركي.. ظننت في الحقيقة أنك قررت قضاء الليلة هنا.

حاولت تسوية خصلات شعرها وهي تسأل: كم الساعة؟

ـ إنه موعد شرب الشاي، لهذا أيقظتك. كل شيء جاهز.

نهض واقفاً، وجر منضدة بعجلات عليها صينية الشاي.

ـ آسف لأن الحليب ما زال متجمداً في الثلاجة، ربما تحبين سكب الشاي ريثما أسخّن بعض الفطائر التي وجدتها في الثلاثة كما وجدت زبدة أيضاً.

لم تكن تتوقع هذه الجلسة الهادئة المسالمة، بينما بينهما كل تلك المرارة وذلك الحقد والتصورات المغلوطة.

أخذت تسكب فنجاني شاي، بينما كين يجلس القرفصاء يسخن بعض الفطائر بشوكة طويلة. وكان وجهه القوي الملامح يتألق تحت وهج النار، عندما أتم تسخين الفطائر أخذ يدهنها بالزبدة بسخاء وهو يسألها إن كانت جائعة.

دهش لرؤيتها تعترف له باسمة بأنها تكاد تموت جوعاً، وبادلها ابتسامتها، وبدا الأمر وكأنهما صديقان.

وعندما أنهت آخر لقمة، أخذت تلعق الزبدة عن أصابعها وهي تقول مسرورة: كانت لذيذة للغاية.

ـ ليس بلذة «الكافيار» طبعاً.

ـ لكنني أحبها أكثر.

قال بمرح: «آه، لا أدري! لكنك اعتدت الاستمتاع بالأطعمة الشهية».

ـ أظنني قلت إن ذوقي تغيّر.

وحالما نطقت بهذه الكلمات ندمت عليها.. لم تشأ أن تعود إلى هذه المناوشات فتبدّد هذا الشعور بالتقارب بينهما.

قال برقة: «هكذا إذن، لكنني ما زلت أتذكر ما الذي كنت تحبينه».

رأته فجأة يقترب منها، فحبست أنفاسها.

ابتسم في عينيها الزرقاوين المتسعتين وقال: أخبريني جو... هل تذكرين عندما دعوتك معي لتناول الطعام على الشاطىء وتناولنا الكافيار.

همست: «لا تنادني جو أرجوك».

ـ لقد دعوتك حبيبتي حينذاك ثم عانقتك.

كانت تتذكر هذا جيداً.. كان يوماً رائعاً من أيام الصيف.. النسيم رقيق ومياه البحر زرقاء، وكانت تشعر بأنها أسعد فتاة في الوجود.

أنكرت ذلك وهي ترتجف: لا أتذكر هذا.

ـ وبعد انتهائنا من الطعام وجدنا كهفاً متوارياً ففرشت بطانية على الرمال، وعندما أخذتك بين ذراعي ورحت أعانقك تجاوبت معي وأبديت لي مشاعر جياشة لا يحلم بها أيّ رجل. وفي الواقع، لو كان المكان اكثر انفراداً لما احتجت إلى ترتيب رحلة إلى لندن وقضاء تلك الليلة في الاستراحة.

قال ذلك بسخرية، فقالت بمرارة: كان عليّ أن أدرك أنك تسعى لإغوائي.

ـ لا، لم أكن أخطط لذلك، وكما أذكر، لم أكن بحاجة لأفعل، ربما كان عليك أن تتمنعي قليلاً، لأصدّق تظاهرك بأنك عذراء.

رفعت رأسها تقول بخشونة: لم يكن ذلك تظاهراً.

أجفل كين وهو يسمع رنة الحقيقة في صوتها.

www.rewity.com

ـ تملّكني العجب حينذاك لأن قولك لم يكن يتفق مع الحكايات التي كانت تتهمك بالتردّد على غرفة أبي ليلاً.

ـ ومن أخبرك بذلك؟ هل كنت تدفع أجرة لمدبّرة المنزل للتجسس عليّ؟

تابع متجاهلاً سؤالها: وهل كانت تلك الحكايات صحيحة؟

قالت بهدوء: كانت صحيحة تماماً... غالباً ما كان هنري يصاب بالأرق، فيتصل بي تليفونياً لأحضر إليه ونلعب بالشطرنج.

ـ ألم يخطر ببالك قط أن زيارته في ساعات غير عادية هو أمر يدعو إلى سوء الظن؟

ـ لم يخطر ذلك ببالي لأنني كنت أتصرف بعفوية.. أظنني كنت ساذجة جداً تلك الأيام.

ـ أليست كلمة (أنانية) أكثر دقة؟

وفي لحظة، انهار ذلك التقارب بينهما.

ـ لا، ليس كذلك.

ـ لماذا لا تعترفين بأنك كنت تحاولين اصطياد أبي إلى أن جئت أنا؟

ـ لم أكن أفعل شيئاً كهذا!

تجاهل كلامها وتابع يقول: ما لبث أن تركته حالما وجدتني صيداً أفضل.

ـ لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق.

ـ لكنك سرعان ما استسلمت لي.

احمر وجهها: وجدتك جذاباً.

فقال ساخراً: المال شيء جذّاب كما يبدو.

ـ لا دخل للمال في ذلك.

ـ لماذا إذن؟

صرخت وقد تمرغت كرامتها في التراب: لأنني كنت من الحماقة بحيث ظننت أنني أحبك؟

قال ساخراً: حب من أول نظرة؟ يا له من شيء مقنع! ولكن إذا كنت حقاً تحاولين إقناعي بأنك لم تسعي إلى أموالي، فقد أصدق أنني أعجبتك من أول نظرة.

قالت ثائرة: حسناً.. افترض ما تريده فذلك الشعور لم يدم.

ـ لم يدم جو؟ لكنني أراه ما زال موجوداً كأقوى ما يكون. أتريدين مني أن أثبت لك ذلك الآن؟

وقفت وقد ملأها الغيظ: لا! ألم يحن وقت ذهابنا؟

ـ ذهابنا إلى أين؟

أخذت تنتعل حذاءها: نعود إلى بيتي طبعاً...

قال دون اكتراث: لا داعي للعجلة.

قالت بهدوء قدر إمكانها: جئت معك حسب مشيئتك، والآن أريد العودة.

كرر يقول: لا داعي للعجلة، صدقيني.

قالت بإصرار: ولكن إذا لم نسرع الآن فسيفوت الوقت.

ـ أظنه فات فعلاً.

ـ أتريد أن تقول...؟

ـ أريد أن أقول إن طريق العبور هو تحت الماء الآن.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ السابعة والنصف.

السابعة والنصف؟ لا بد أنها نامت عدة ساعات.

ـ لماذا لم توقظني؟

ـ لقد فعلت.

ـ أعني قبل ذلك.

كان كين قد نظر في جدول أوقات المد والجزر ولا بد أنه علم أن الوقت أمامهم قصير.

ـ لم أنتبه إلى الوقت مع الأسف.

آه، لماذا كانت حمقاء فوثقت به؟

ـ هل أنت واثق من عدم إمكانية العودة؟

ـ ألقي نظرة.

حملت سترتها واجتازت الردهة إلى الباب الخارجي ففتحته ووقفت تنظر.

تلاشى كل أمل لها أمام ذلك المشهد... بين الجزيرة وأضواء المدينة الباهتة، امتدّ بحر من الضباب. أما الطريق فقد تلاشى كلياً...

قال كين الذي أصبح بجانبها: تعرفين حتماً أننا لا نستطيع العبور وهذا يعني أن علينا أن ننتظر حتى الصباح.

أضاف وهو يراها ترتجف: علينا أن ندخل من البرد فلا فائدة من التعرّض لالتهاب رئوي بالوقوف هنا.

سمحت له بجرها إلى الداخل وقد تملكها الذهول، ثم أغلق الباب.

وفي المكتب ساعدها برفق على خلع سترتها ثم أجلسها على مقعدها وعاد يجلس على كرسيه وهو يقول: بما أننا لن نذهب إلى أي مكان، لماذا لا نرتاح؟

أزعجتها طريقته في الكلام.. كانت لهجته راضية هادئة منتصرة، وفجأة أدركت أن احتجازهما هنا لم يكن وليد الإهمال بل هو خطة مدبرة.

لم تتمكن من إخفاء غضبها وسخطها، فقالت بحدة: ما حصل هو خطة مدبرة منك.

أجاب هازئاً: لا بد أنك تظنينني أعتقد بأن الغاية تبرر الوسيلة، وبعدها ستتهمينني بأنني أعطيتك حبوباً منوّمة.

وعندما بقيت صامتة رفع حاجبيه: لا؟ هذا حسن إذن.

اندفعت تتهمه: لو لم أنم، لوجدت طريقة أخرى لتبقيني هنا.

ـ يبدو أنك متأكدة مما تقولين. هل علمت أيضاً ما هي دوافعي لذلك؟

ـ لا أدري، ربما لمجرد الإزعاج.

ـ أتعنين بالنسبة لبومونت؟ ستواجهين متاعب كثيرة معه.

ـ وهذا يضاف إلى تلك المتاعب.

ـ حسناً، إن لم تخبريه، فلن أخبره أنا.

ـ ليس هذا فقط...

ثم عضت شفتها وقالت متلطفة: أرجوك كين صدقني. لا أريد البقاء هنا...

ـ لا بد أنك متلهفة للذهاب، لأنها المرة الأولى التي تتمكنين فيها من لفظ اسمي.

تجاهلت سخريته وأصرّت قائلة: ألا يمكننا العودة في زورق؟ الضباب ليس كثيفاً جداً.

ـ أتقترحين قضاء الليلة في سفينة، ثم نعود صباحاً لأجل السيارة؟

أجابت بلهفة: نعم.

أي شيء هو أفضل من البقاء معه وحدهما في هذه العزلة.

هز رأسه بأسف ساخر: آسف لأن هذا غير ممكن، إذ لم يعد لدينا مراكب هنا. يبدو أن هنري قرر ألا يزعج نفسه باقتنائها.

وإذ رأى الأمل على وجهها يتحوّل إلى يأس، قال: وعلى كل حال، لا داعي لكل هذا اليأس، فأنا زوجك.

يا له من جلف متغطرس واثق من نفسه!

ـ إنك زوجي فقط...

أكمل لها الجملة: «فقط في نظر القانون؟ حسناً، إذا شئت مشاطرتي الفراش، فهذا قانوني على الأقل».

ـ لا أريد مشاطرتك الفراش، لقد جئت معك إلى هنا فقط لكي توافق على فسخ الزواج وليس لزيادة الأمور تعقيداً.

ـ حسناً، إذا كنت تخشين فقط أن تتعقد الأمور...

ـ لست فقط قلقة خوفاً من تعقد الأمور.

حتى وهي تنكر ذلك، كانت تعلم أن هذه المواجهة ستتطور إلى

معركة ستهزم هي فيها.

ـ هذا هو معنى كلامك.

ـ صدقني، لا أرغب في النوم معك.

قالت ذلك وهي تدرك أنها كاذبة، ثم أضافت: لقد وعدت ريتشارد بأن أتزوجه، وأنا أكره أن يفسد شيء هذا الأمر.

ـ حسناً، إذا كان ما تريدينه مجرد زوج غني، هل لي أن أذكرّك بأنك متزوجة فعلاً من رجل غني؟

ـ لست أطلب زوجاً غنياً فقط... أريد ريتشارد، وأنا أحبه.

ـ لماذا أشعر عندما تقولين إنك تحبين بومونت، أنك تحاولين إقناع نفسك بذلك كما تحاولين إقناعي؟

ـ هذا غير صحيح، ولا أستطيع تصوره حقاً.

ـ أخبريني جو... هل هو عاشق جيد؟

أجابت بحدة: «هذ ليس من شأنك».

ـ إذا كنت تقارنين بيننا، فهذا السؤال من شأني.

ـ أنا لا أقارن بينكما.

ـ ألعدم رغبتك في ذلك، أم لعدم تمكنك؟

ـ لا أرغب في ذلك.

ـ لم لا؟ ظننتك تسرّين إذا ما قارنت بيننا ووجدتني غير كفؤ... وتحفظك الغريب هذا يجعلني أتساءل عما إذا كنت تحبينه حقاً!

صرخت به وقد فرغ صبرها: لا بأس، لم يحدث أي شيء بيننا، إذا كان هذا يرضيك.

قال ضاحكاً: لا عجب أن يبدو الشيطان المسكين محبطاً بهذا الشكل. ولماذا لم يحدث؟

ردت بعذوبة ساخرة: ربما لأنني فتاة رجعية أريد خاتم الزواج أولاً.

ـ لا بد أنك أنت أيضاً محبطة، أم لعل لديك عاشقاً آخر غيره؟

ـ آسفة أن أخيّب ظنك.

ـ كم عاشقاً اتخذت بعدي؟

قالت بمرح: عشرات.

وقف فجأة وشدّها عن كرسيها: أريد الحقيقة.

ـ أظنك أردت شيئاً اكثر إثارة.

هزها بعنف قائلاً: «كم عددهم؟».

قالت بضجر: «لا أحد».

مرت على وجهه مشاعر عنيفة، لكنها تلاشت قبل أن تدرك معناها. تغيرت ملامحه الرائعة وظهر عليها قناع غامض يخفي أفكاره، قال بعد لحظة وهو يتركها تعود إلى كرسيها: غريب! فأنت امرأة محمومة المشاعر.

ووقف متكئاً إلى المدفأة وأخذ يتأملها: أتذكر أول مرة كنت فيها معي... ولا أظن ذلك كان تصنعاً...

قالت بضيق: «أفضّل عدم الحديث عن الماضي».

ـ حسناً، لا يبدو أن لدينا مستقبلاً معاً، الماضي هو إذن كل ما نملك للحديث عنه، إلا إذا كنت تحبين التأمل في مقدار سعادتك مع بومونت.

التفتت إليه: سعادتي معه أكبر من تلك التي عرفتها معك. على الأقل هو يحبني، بينما أنت حتى المودة لا تشعر بها نحوي... لا تشعر نحوي بشيء...

ـ آه! بل أحببتك، رغم علمي بالضبط ما كنت تهدفين إليه. كنت مفتوناً بك للغاية، احتقرت نفسي لأنني أغرمت بباحثة نافهة عن الذهب، إلا أنني كنت أثور غضباً وغيرة في كل مرة كنت تتوجهين لأبي ولو ابتسامة عادية.

رغم أنه تكلم عن افتتانه بها بصيغة الماضي فإن مجرد معرفتها بأنه كان ذات يوم يكنّ لها شيئاً من المشاعر، جعلها تشعر بالارتياح.

اعتادت على الاعتقاد بأنه لم يكن يشعر نحوها إلا بالنفور وعدم الرضا، ونوع من الانجذاب الذي يشعر به أي رجل طبيعي الميول نحو

www.rewity.com

الأنثى . . .

قال بصوت رقيق: أخبريني يا جو . . . لو أنني لم أحضر إليكم . . هل كنت ستتزوجينه؟

ـ ما الذي يجعلك تظن أنه كان سيطلبني للزواج؟

ـ كان مغرماً بك وإلا لماذا ترك لك نصف أملاكه؟

ـ كان هنري يهتم بي حقاً، ولكن لم يكن مغرماً بي على الإطلاق. كما لا أدري لماذا ترك لي نصف أملاكه، ويا ليته لم يفعل في ظروف كهذه!

قال ساخراً: «أظن، من وجهة نظرك، كان من الأفضل لو بقيت أنا في بوسطن وأصبحت أنت أرملة ثرية».

ـ ما كنت لأتزوجه أبداً.

ـ لكنك أخبرتني أنك كنت مولعة به.

ـ هذا صحيح، لكنني لم أكن أشعر نحوه بذلك النوع من الحب، كنت أعتبره أباً لي.

ـ ألا تعنين الأب الذي يغنيك؟

ـ لم يقدم لي أية هدية، إذا كان هذا ما تقصده.

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ متأكدة تماماً باستثناء السلسلة والعلبة الصغيرة التي قدمها إلي في عيد ميلادي الواحد والعشرين، وأنت تعرفها فقد رأيتني أضعها.

قال بشيء الضيق: «نعم. لقد رأيتها، ولكن ماذا عن القرطين؟»

سألته بحيرة: القرطان؟ أي قرطان؟

أخذ كين محفظة جلدية من جيب سترته وأخرج منها شيئاً أراها إياه. . كان على راحته القرطان اللذان أخذهما من أذنيها الليلة الماضية.

قال وهو يراقب وجهها: إنهما رائعان، أليس كذلك؟ وطريقة صنعهما دقيقة للغاية.

ـ أظن ذلك ولكن ما شأنهما بهنري؟

تجاهل سؤالها وهو يقول بحذر: لم أرك قط تتحلين بهما في بداية

تعارفنا.

ـ لأنني لم أكن أملكهما حينذاك.

ـ وربما لأنك كنت تخفيهما.

ـ أخفيهما؟ وما الذي يجعلني أخفيهما؟

ـ حتى لا أعلم أن هنري أعطاك إياهما.

ـ لكن هنري لم يعطني إياهما.

ـ إذن فأنت تنكرين ذلك؟

ـ طبعاً أنكره.

ـ من أين حصلت عليهما إذن؟ أخبرتني أن أسرتك كانت فقيرة، والقرطان باهظان لا يتوفران في «بسطة» في السوق.

قالت بغيظ: ليس من شأنك أن تعلم من أين حصلت عليهما! والآن هل لك أن تعيدهما إليّ من فضلك؟

قال وهو يعيدهما إلى المحفظة، متجاهلاً شهقتها: لا أعتقد، سأبحث في الأوراق فإذا لم يكن هنري هو الذي أعطاكِ إياهما . .

انفجرت تقول غاضبة: لم يفعل ذلك.

ـ لم تخبريني من أين حصلت عليهما، ولهذا كل ما أفترضه هو أنك سرقتهما.

ثارت غضباً وصرخت وهي تنتصب واقفة: سرقتهما؟ كيف تجرؤ؟ اتهمتني بأنني وصولية دون قلب أحاول إغراء أبيك، وبأنني تزوجتك طمعاً بأموالك، والآن تجرؤ على اتهامي بالسرقة!

قال بهدوء: إذا كنت مخطئاً في ذلك فأنا أعتذر. . لكنني لا أظن الاعتذار ضرورياً لأنني أعلم جيداً أيّ نوع من النساء أنت.

ـ قد تظن نفسك تعلم، لكنك مخطىء تماماً، فأنا لست كما تظن، كما لست لصة بكل تأكيد!

ـ إذن فقد أعطاك إياهما هنري.

ـ قلت لك إنه لم يفعل هذا.

www.rewity.com

ما إن أنهت حديثها حتى انفجرت إحدى قطع الحطب في المدفأة وتطاير الشرر إلى السجادة. سحقها كين بحذائه ومدّ يده يضع قطعة حطب مكانها، ولما لم تستطع اليزابيث البقاء اكثر من ذلك، قالت بصوت مختنق: أنا ذاهبة إلى السرير.

ثم قفزت واقفة واتجهت إلى الباب.

ـ انتظري لحظة واحدة؟

شيء في لهجة كين جعلها تقف مكانها.

ـ قد تحتاجين هذه.

ومدّ يده خلف مكتبه وناولها حقيبة ملابس صغيرة تخصها.

أجفلت وسألته: من أين أحضرت هذه؟

ـ من صندوق سيارتك أثناء نومك، آه! أتعنين قبل ذلك؟ لقد جمعت أثناء وجودك في الحمام هذا الصباح، ما تحتاجينه لقضاء الليل تحسّباً لأي طارىء.

أذهلتها وقاحته: إذن فقد خططت لكل هذا؟

ـ هذا ظنك منذ البداية.

ـ لدي إثبات الآن، ولكن لماذا؟

ـ سبق وأن أجبت على سؤالك هذا بنفسك، إذا لم تخني الذاكرة.

ـ ولكنك وعدتني بألا تخبر ريتشارد.

ـ ولن أفعل، مهما حدث.

سألته بحذر: ماذا تعني بقولك (مهما حدث؟).

هز كتفيه: لا شيء، والآن إذا أردت شراباً ساخناً قبل النوم، بمكنني إحضار علبة الكاكاو.

ـ لا، شكراً، لا أريد.

ـ هل أنت متأكدة؟ قد تساعدك على النوم.

ـ لا أريد مساعدة.

ـ أحلاماً سعيدة إذن.

وفجأة، أصبح على مقربة منها دون أن تنتبه آخذاً وجهها بين يديه ونظر إليها برغبة وقال: قبلة واحدة قبل النوم تحية لأيامنا الماضية فقط.

هتفت بمزيج من الغضب والخوف: «لا!».

ـ لماذا هذا التحفظ؟ أينا لا تثقين به؟ أنا أم نفسك؟

قبل أن تتمكن من الجواب أو الاحتجاج، كان قد أخذها بين ذراعيه معانقاً فدار رأسها وذابت بين يديه وأخذ يعانقها بحب بالغ وكأنه أمضى سنوات وسنوات بانتظار هذه اللحظة.

تلاشى العالم من حولها وكادت تضيع، إلى أن أنذرها صوت في أعماقها. فتملصت منه بجهد وهي تقف مترنحة.

رغم ما بدا على كين من دوار مماثل، كان أسرع في السيطرة على نفسه، ثم قال بصوت أبح: العناق البسيط أدّى إلى مثل هذه المشاعر... وربما كنت على حق بحذرك، إلا إذا غيّرت رأيك بشأن قضاء الليل بين ذراعي.

أخذت ترتجف وهي ترى الشوق في عينيه، ثم تمكنت من القول بصوت هامس: تصبح على خير.

ـ لا تنسي ملابس النوم.

ثم أضاف برقة: إذا غيرت رأيك، فأنا في الانتظار.

اختطفت حقيبتي ملابسها ويدها وقد تملكها الذعر، وهربت وهي تشعر بوهن في ساقيها.

عندما وصلت إلى غرفتها، وضعت أشياءها على كرسي ثم استلقت على السرير مرتجفة. كان في بابها قفل، لكنها شعرت بالغريزة أن استعماله غير ضروري، إذ مهما كان شوق كين إليها، فهو لن يأتي إلى غرفتها، بل سينتظر قدومها هي إليه. كانت واثقة من ذلك، وهي تشعر بدافع مجنون يشدها إليه.

كيف تشعر بمثل هذا نحو رجل رأيه فيها بذلك الشكل، رغم انجذابه إليها؟

www.rewity.com
marmoria5555

يا ليته فقط يوافق على فسخ سريع للزواج! وعندما تتزوج ريتشارد ستشعر بالأمان والاستقرار في حياة عائلية، وإذا لم تشعر نحوه بعواطف محمومة فهذا أفضل، فقد رأت ما تفعل بها العواطف المحمومة. هذه المواجهة الأخيرة مع كين كادت تدمّر حياتها، فقد استغرقت استعادتها لبعض الكرامة واحترام الذات والعثور على نوع من الاستقرار العاطفي، استغرق ذلك سنوات... كلا، إنها لا تستطيع ولا ينبغي لها التورط معه مرة أخرى، وإلا كان في ذلك منتهى الحماقة.

ومع ذلك، كانت ذكرى شوق كين إليها أشبه بقبضة ضخمة تعتصر قلبها، وتملأ صدرها ألماً، ولكن عليها ألا تسمح بذلك.

تشابكت يديها بشدة، وأحنت رأسها، ثم خاضت معركة صامتة. وانتصرت...

* * *

٦ ـ حمى لا شفاء منها

رفعت رأسها، ونظرت في أنحاء الغرفة الفسيحة ذات الجدران البيضاء إلى الأرض التي تغطيها ألواح داكنة من خشب السنديان، وإلى قطع الأثاث الأثرية القليلة، لقد أحبت دوماً بساطتها هذه، وكذلك منظر المدينة عبر المياه.

كما سبق وقال كين، ما زالت الغرفة كما تركتها.. السرير مفروش بالغطاء الجميل المطرز باليد، وهناك المناشف الناعمة في الحمام العصري... وكأنهم كانوا ينتظرون عودتها.

انتابها شعور غريب جرّاء هذه الفكرة. بعض ثيابها ما زال معلقاً في الخزانة، كما كان بعض اشيائها الشخصية متناثراً هنا وهناك.. وفي أدراج الخزانة، كان ثمة صورة فوتوغرافية لها ولهنري، في إطار خشبي.

أخذت تنظر إليها فشعرت بكل الولع القديم يعود ليغمرها.

رغم أن كين كان يماثله بنية، إلا أن ابنه الأصغر كان يشبهه في بقية صفاته الجسدية، كان للاثنين الأنف نفسه والسنّين العلويين المتباعدين نفسهما.

كان رجلاً بالغ الشهامة والرقة والمراعاة لإحساس الآخرين، بالإضافة إلى روح النكتة. كان رجلاً لا يؤذي ذبابة بالرغم من بنيته المتينة وطوله الذي كان يتجاوز الست أقدام. وكان شعره الفضي كثيفاً وابتسامته الصبيانية وحبه الهادىء للحياة يجعلانه يبدو أصغر من سنّه.

www.rewity.com
marmoria555

أخذت الصورة في يوم مشمس هادىء في أواخر الصيف وبدت وهي مرتدية ثوبها القطني الخفيف وشعرها المجموع بشكل ذيل حصان كصبية صغيرة خالية البال. أما هنري فكان يرتدي بنطلونه الجينز وقميصه القصير الكمين، بدون كرسيه ذي العجلات. يمارس رياضة المشي اليومي على الشرفة، كانت عصاه التي يستند إليها في يد، وذراعه الأخرى حول كتفيها يستند إليها هي، وكان أطلق لتوّه نكتة عن أنه قادر الآن على هزم أي حلزونة يمكن أن يواجهاها، فضحكت هي لنكتته هذه عندما برز بيبري حاملاً آلة التصوير.

بدا كل شيء حينذاك هانئاً بريئاً، ولكن عند النظر إليه الآن يمكنها أن ترى كيف أن من الممكن أن يُساء تأويله. كما أساء كين التأويل فعلاً...

تنهدت وهي تعيد الصورة إلى الدرج، ثم فتحت حقيبتها تخرج حاجيات النوم لتستعد للفراش وهي تفكر في كين ومبلغ دقته، فقد وضع، عدا قميص النوم والمعطف المنزلي المفضلين لديها، طقمين من الملابس الداخلية، وحذاءً منخفض الكعب وزوجين من الجوارب وثوباً صوفياً وتنورة وكنزة. ورغم غضبها من دوافعه الملتوية التي جعلته يتعمد وضعها في هذه الورطة، إلا أنها لم تتمالك نفسها من العجب البالغ لاهتمامه هذا براحتها.

رجل غيره ما كان ليهتم بذلك مثقال ذرة.. أخذت تفكر في ذلك وهي تدخل تحت الدوش. كان كين رجلاً غامضاً، يمكنه أن يكون فظاً وبالغ الحنان، خشناً ورقيقاً، حلواً ومراً، محباً وقاسياً.

لم تعرف قط كين الحقيقي، لكنها أحبته كما هو... أحبته بعمق وشغف ما أدهشها هي نفسها. شغف حاولت جهدها خنقه، ولكن ما إن رأت كين مرة أخرى، حتى عاد فاشتعل من جديد. شغف تعرف الآن أن من المستحيل قتله في نفسها...

وهكذا كيف يمكنها حتى التفكير في الزواج بريتشارد؟ جاء الجواب أنها لن تستطيع ذلك، وطالما هذا هو شعورها نحو زوجها الأول، لن

يمكنها الزواج برجل آخر أبداً.

لكن كين لم يكن زوجها فعلاً... ولو ضعفت أمامه لكان ندمها عند الصباح مراً للغاية، ذلك أن علاقة ملتوية كالتي بينهما لا يمكن أن تسفر عن شيء.

استعدت للنوم وقلبها بثقل الرصاص، ثم استلقت على السرير وأطفأت الضوء. أغمضت عينيها وحاولت الاسترخاء، لكنها لم تستطع أن تمنع الأفكار من أن تراودها. بعد ذلك بساعة أو نحوها، كانت ما تزال مستيقظة وقد أرهقها التقلب في الفراش وبدا لها أن فكرة الكاكاو الساخن التي رفضتها، فكرة جيدة.

نهضت من فراشها وارتدت معطفها المنزلي ثم فتحت الباب وأضاءت نور السلم ثم وقفت تفكر.. لم يكن لديها فكرة عن الغرفة التي ينام فيها كين، ولكن إذا لم يكن نائماً، فإن أي خيط من الضوء ينساب من تحت بابه قد يضايقه.

أسرعت تطفىء الضوء، وفي الظلام أخذت تهبط السلم المألوف. اجتازت الردهة حافية ثم اتجهت إلى المطبخ حيث وضعت ماءً في إبريق الشاي. أخذت تفتش في الخزانة عن علبة الكاكاو، عندما سمعت حركة جعلتها تدرك أنها لم تعد وحدها.

استدارت مجفلة لترى شخصاً طويلاً أسمر يملأ مدخل الباب المعتم.

قال كين ساخراً: أرى أنك غيرت رأيك... أعني بالنسبة إلى الكاكاو.

قالت: «لقد أفزعتني، كيف عرفت أنني هنا؟»

ـ سمعتك تجتازين الردهة.

تقدم نحوها فرأت أنه ما زال مرتدياً ملابسه الكاملة، وهذا يعني أنه لم يذهب إلى سريره على الإطلاق.

نظر متفرساً إلى جسمها الرشيق من شعرها الأسود الحريري المنسدل على كتفيها حتى قدميها الحافيتين وهو يقول: ألم تستطيعي الرقاد؟

سألته متجاهلة سخريته: لماذا لحقت بي؟

ـ كنت أفكر في تناول شيء أشربه، فرأيت من الأفضل أن نتناوله معاً بجانب المدفأة.

هزت رأسها: كنت أنوي أخذ شرابي معي إلى السرير.

ـ حسناً، يمكننا تناوله في السرير إذا كنت تفضلين هذا...

حاولت الاحتفاظ بهدوئها وهي تقول: هذا ليس ما كنت أعنيه وأنت تعلم ذلك.

ـ سنتناوله إذن بجانب المدفأة.

أخذت اليزابيث تتحرك بعدم ارتياح، متمنية لو أنها ظلت في غرفتها آمنة... ملأت فنجانين ووضعت الكاكاو فقال: لا بأس ببعض قطع من البسكويت.

وعندما وضعت الفنجانين وعلبة بسكويت على صينية سار أمامها إلى غرفة المكتب بينما تبعته بعجز.

شدت حزام المعطف حولها ثم جلست على المقعد الذي شغلته سابقاً. النيران ما زالت متأججة، وكومة من المستندات على المنضدة المنخفضة تبيّن أن كين كان يتفحصها بجانب المدفأة.

أزاح الأوراق جانباً، ثم وضع الصينية وناولها فنجانها وقطعة بسكويت، وهو يقول: كنت أراجع وصية هنري، خصوصاً تاريخها. لقد خطر لي، متأخراً بعض الشيء، أن وقت كتابتها قد يكون له صلة وثيقة بـ...

في الماضي، لاحظت اليزابيث أن أفكار كين غالباً ما تتجاوب مع أفكارها، كما سبق وقال إنهما متقاربان عقلياً، فعندما كانت تحاول النوم، شردت أفكارها إلى الوصية وتساءلت عن تاريخها...

لكن كين كان يتابع كلامه: ... فإذا كان تاريخها مبكراً، فهذا يعني أن هنري كان يحبك كما ظننت دوماً. فإذا كان الأمر كذلك، لا بد أنه كان سيغيرها بعد هربك منه والزواج بي، يعلم الله أنه كان بالغ الغضب.

اندفعت تقول دون تفكير: لم يكن غاضباً عندما رأيته.

قال بحدة: ماذا قلت؟

في الماضي كان يرهبها بنظراته الجامدة وعينيه نصف المغمضتين، لكنها الآن صممت ألا تسمح له بذلك، فكررت كلامها بحزم: «لم يكن هنري غاضباً عندما رأيته».

ـ آه، ومتى كان ذلك؟

ـ عندما ذهبت إليه أخبره بأنني سأتزوجك، وأقول له وداعاً...

واحمر وجهها قليلاً: «كنت أعلم أنك تريده سراً، لكنني لم أستطع تركه دون كلمة».

ـ وتقولين إنه لم يكن غاضباً؟

ـ بالعكس تماماً... لقد أجفل في البداية للمفاجأة، ولكن عندما سألني إن كنت...

كان يراقبها بإمعان، ثم سألها: ماذا سألك؟

أجابت بصوت خافت: إذا كنت أحبك.

ـ وبماذا أجبته؟

ـ أجبته بأنني أحبك، فبان عليه السرور، وقال بطريقته الجافة: لقد لاحظت فعلاً أنك وكين لا تستطيعان تحويل أعينكما عن بعضكما بعضاً، ومعظم الناس يعتبرون من يقع في الغرام بمثل هذه السرعة، مجنوناً... لكنني لا أوافقهم الرأي.

فاهتز كين، وأضافت هي: «لا أستطيع أن أفهم لماذا كان غاضباً منك».

فقال ببطء: «أنا أفهم، إذا كان ما تقولينه صحيحاً».

ـ إنه صحيح.

أخذت تنظر إلى جانب وجهه الصلب وهي تتساءل عما يفكر فيه، وما إذا كان يصدقها أم لا. وساد صمت طويل كان أثناءه يحدق في النار ساهماً، ثم التفت إليها يقول: بعد أن هربت واختفى أثرك، وعلم أنني تزوجتك بدافع غير صحيح، لامني لأنني سبب هربك، وبعد ذلك بوقت

www.liilas.com

قصير كتب وصيته . . . إنني واثق من أنه لم يفقد الأمل في العثور عليك.

اغرورقت عينا اليزابيث بالدموع، فقد كان هنري الشخص الوحيد الذي يعطف عليها بإخلاص ويثق بها. وتملكها شعور عميق بالخزي وهي ترى أنها لم تفكر إلا في نفسها وفي تعاستها وآلامها وخسارتها. . . لو أنها فقط اتصلت به قبل فوات الأوان. . .

وعندما رأى المشاعر على وجهها، مدّ يده يمسك بيدها، وكان في هذه الدلالة العاطفية دمارها، إذ انهمرت دموعها على الفور. سقطت دمعة على يد كين، ودون تفكير مسحتها بيدها.

تمتم شيئاً بصوت منخفض، وبعد لحظة كان يقف ويأخذها بين ذراعيه.

كل التوتر الذي تملكها أثناء الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، وجد له فجأة متنفساً الآن، فأخذت تشهق دون توقف، وتبكي ليس لأجل هنري فقط بل لأجل نفسها وما جرى لها، وما كان يمكن أن يكون.

عندما علمت بخداع كين، جفّت الدموع في مآقيها. أثناء الخمس سنوات التي مرت، لم تبك مرة واحدة، والآن بدا وكأن أبواب الطوفان انفتحت واستحال عليها التوقف.

ضمها إلى صدره بحنان أقنعها بأنه يحبها حقاً، ثم وضع رأسها على صدره وقبّل شعرها.

عندما توقفت عن البكاء، رفع إليه وجهها المبلل بالدموع وأخذ يمسح بقية دموعها قبل أن يحتضنها من جديد. تقبلت تخفيفه عنها واراحت رأسها على صدره فأحست أنها عادت إلى بيتها.

أخذ يربّت على ظهرها للتخفيف عنها، ثم ما لبث أن أحنى رأسه يعانقها. . . عند ذلك تفجرت عواطفها ولم تكن من القوة بحيث تستطيع السيطرة عليها، وضاعت في بحر من الحب والأمان، وامتدت ذراعاها إلى عنقه ثم ضاعت. . . وعندما حملها بين ذراعيه وصعد بها إلى غرفته لم تقاومه.

* * *

تحركت اليزابيث ثم استيقظت مفعمة بالبهجة التي ملأت قلبها وعقلها وكيانها كله.

بقيت مستلقية جامدة مغمضة العينين، متلذذة بهذا الشعور غير العادي من السعادة التي لم تعرفها منذ زواجها بكين. . . كين؟!. . .

وتدفقت ذكريات الليلة السابقة في ذهنها وحبست منها الأنفاس، لقد أبدى نحوها من الحب والعواطف ما أنساها الماضي كله.

قبل الفجر سألها: هل تشعرين ببرد؟

فتحت عينيها، ورأته مستلقياً بجانبها على مرفقه وهو ينظر إلى وجهها الناعس المتوهج وشعرها الأسود الحريري المنتشر فوق الوسادة البيضاء بخفة ويكرر: أتشعرين ببرد؟

همست: كلا.

وفي الضوء الخفيف، رأت شعره أشعث قليلاً، وعينيه الخضراوين صافيتين متألقتين، وقد نبتت لحيته كظل خفيف على ذقنه.

لم تكن تحلم قط برؤيته بهذا الشكل مرة أخرى، وأخذ قلبها يخفق.

أزاح بعض خصلات شعرها عن وجنتيها وابتسم لها وقد ارتسم الدفء والحنان على وجهه.

ـ أرجو أن تكوني استمتعت بليلة عرسك؟

وعندما رأى وجهها يتوهج احمراراً سألها: أتدركين أن هذه هي الليلة الوحيدة التي نستيقظ فيها معاً، باستثناء تلك الليلة التي أمضيناها في الاستراحة؟ لقد بقيت أحلم بهذه الليلة منذ هربت مني.

ثم هتف بمرارة بالغة: يا للسنوات الخمس التي ذهبت سدى! لو لم تتركيني لعرفنا الكثير من السعادة.

وضعت يده جانباً ثم جلست وقد تبددت كل سعادتها.

ـ بعد أن اكتشفت أنك لم تتزوجني إلا لتحمي أباك مني، ماذا كان عساي أن أفعل غير هذا؟

www.rewity.com

جلس أيضاً وهو يقول بحذر: ما زلت لم تخبريني كيف عرفت.

ـ هذا غير مهم.

ـ بل مهم بالنسبة إليّ. لم أستطع إلا أن أتساءل عما إذا كان لأبي دور في هذا، رغم عدم عقلانية هذه الفكرة، ولكن إذا كان ما سبق وأخبرتني به صحيحاً . . .

ـ كان صحيحاً، وهنري ليس له دور في هذا.

ـ كيف إذن؟

ـ لا أرى فائدة في العودة إلى الحديث عن هذا. . ليس المهم كيف عرفت، لكن المهم أنه كان صحيحاً.

ـ جزئياً فقط، كانت هناك اعتبارات أخرى.

فقالت بنفس مرارته: أعرف هذا، رغم إرادتك وكل شيء آخر، مازلت أجذبك.

ـ كان هذا أكثر من مجرد جاذبية، كنت كالحمّى في دمي، ومازلت كذلك. . . عندما هربت مني، رجوت أن أشفى من مشاعري نحوك، لكنني سرعان ما وجدت أن هذا لم يحدث، وإنما ازداد سوءاً. كنا متزوجين ولكن غير متزوجين. . . أدركت أنني لن أشفى من تلك الحمّى حتى أجعلك زوجتي حقاً وليس صورياً على الورق.

ـ إذن فهذا كان عملك الذي لم ينته بعد؟ حسناً، لقد انتهى الآن. . .

ـ آه! لكنني لست واثقاً تماماً من ذلك.

أضافت دون اهتمام بمقاطعته: وأريد حريتي.

ـ إذا كنت تتحدثين عن فسخ الزواج، فقد فات الأوان.

قال ذلك بادي السرور.

ـ إذن، سيكون ذلك طلاقاً.

ـ هل مازلت ترجين الزواج بريتشارد؟

كان جسمه متوتراً وصوته بارداً كالثلج وهو يقول هذا.

ـ لا.

بدا عليه الارتياح: متى غيرت رأيك؟ قبل هذه الليلة أم بعدها؟

احمر وجهها: وما الفرق؟

ـ الفرق كبير جداً.

ـ حسناً جداً، كان ذلك قبلاً. ربما لو كنت متلهفة للزواج به، لكان ذلك أنقذني من الوقوع في نفس الخطأ مرتين.

ـ إذن ما زلت تعتبرين زواجنا خطأ؟

ـ وماذا أعتبره غير ذلك؟ آه! لماذا عدت إلى حياتي؟ كنت سأصبح سعيدة مع ريتشارد.

قال والشك في ملامحه: ماذا سيعطيك أكثر مما أعطيتك إياه؟

ـ أتعني عدا عن الحب؟

ـ وهل الحب مهم بالنسبة إليك؟

رفعت رأسها: نعم.

ـ تعلمين أن أي شخص يمكنه الادعاء بأنه يحب شخصاً ما.

تجاهلت قوله هذا وقالت: أعتقد أنه صادق. ولكن الأهم من ذلك، أنني معه أستطيع احترام نفسي.

استمرت تقول وهي ترى شفتيه تتوتران: أعجب لدوام تفكيرك بي بعد غياب سنوات. لا بد أنك تعرفت إلى نساء كثيرات هن فوق الشبهات.

ـ لسوء الحظ، لم أجد امرأة أخرى تصلح لي.

ـ لا تقصد القول إنك بقيت وحيداً طوال تلك السنوات.

ـ لا. . أقصد أن أقول إنه لم تحظ امرأة باهتمامي مثقال ذرة. كنت أتخذ رفيقة من وقت لآخر، ولكن ليس حبيبة أبداً.

صدقته، وتملكها شعور بالبهجة والارتياح، ولاحظ هو ذلك على الفور، فسألها: هل أنت مسرورة؟

ـ ولماذا يسرني ذلك؟ صدقني، لا يهمني كم حبيبة اتخذت لك.

قال وهو يلمس أنفها بإصبعه: الكاذب يطول أنفه.

قالت متلعثمة: لا. . . لا أدري ماذا تعني.

ـ أعني أنك كاذبة، وأعتقد أن هذا يهمك.

حوّلت عينيها عنه وهي تعض شفتها. أخذ يتأمل جانب وجهها، وجنتها الجميلة، حاجبها المرتفع، ثم تابع يقول: لم أستطع أن أصدق أنك أحببتني قط، ولكن بعد الليلة الماضية، اقتنعت بشيء واحد، وهو أن في دمك نفس الحمى التي في دمي، والخمس سنوات الماضية لم تفلح في شفائها.

ومد يده يمسك بذقنها يدير وجهها إليه: ما دامت هذه هي المسألة، أقترح أن نبقى معاً إلى أن تنتهي هذه الحمى فنتحرر نحن الاثنين. عند ذلك أمنحك طلاقاً سريعاً سهلاً.

لم تستطع التنفس بسبب الألم الذي أحدثته كلماته في نفسها.. أبعدت رأسها عنه ثم صرخت: لن أبقى معك ولو كان في هذا حياتي.

قال ببطء وكأن كلماتها حجارة ضربته بها: ظننت بعد الليلة الماضية...

ـ الليلة الماضية كانت غلطة شنيعة، وما كان لها أن تحدث قط.

ـ ولكنها حدثت، وبرهنت على الكثير.

ـ كل ما برهنت عليه هو أنني أسوأ حمقاء في العالم...

وعندما أوشك أن يقاطعها أسرعت تقول: لا بد أنني كنت مجنونة لأثق برجل يظنني مجرد امرأة سافلة مرتزقة، وربما لصة أيضاً.

أزاحت عنها غطاء السرير وحاولت النهوض من السرير، عندما أمسك كين بذراعها وأبقاها مكانها: إلى أين تذهبين؟.

ـ سأرحل الآن.

هز رأسه وهو يقول بأسف ساخر: لا، مع الأسف.

قالت بعناد: بل سأرحل، إذا لم تأخذني فسأعبر ماشية.

ـ لن تفعلي هذا.. قد تكونين سافلة مرتزقة ومع هذا لا أنوي أن أدعك تهربين مني مرة أخرى.

ـ لا يمكنك إرغامي على البقاء.

فأمسك كتفيها: لا تكوني واثقة.. اسمعي يا جو.. لا تدعينا..

ـ ارفع يديك عني، دعني وشأني، لا أريد أن أراك مرة أخرى.

وأخذت تقاومه بضراوة، وهي تضربه مذعورة... وانتقاء لضرباتها، أمسك يديها بيد واحدة وسمرهما فوق رأسها.

قالت بعنف: «أكرهك.. لا أحتمل أن تلمسني».

تصلب جسمه وبان الخطر في عينيه الملتهبتين غضباً، ثم قال بهدوء: هذا شيء صعب. ما دمت زوجتي سألمسك متى شئت.

ـ أتعني بالقوة؟

ـ لا. ليس هذا ما أعنيه.. لم يحدث قط أن أرغمت امرأة على شيء، ولا أريد أن أبدأ ذلك الآن.

وأحنى رأسه إليها: أرأيت يا حبيبتي؛ لن يكون الإرغام ضرورياً؟

جعلتها كلمة (حبيبتي) تتخلى عن حذرها. وفيما كان يعانقها همس قائلاً: أنت رائعة الجمال... أنت بهجتي.. وحبي.. وألمي.. لم أتصور قط أن من الممكن أن تساورني نحو امرأة مشاعر كهذه.

استطاعت أن تقول: لكنني لا أريدك.

ابتسم قائلاً: لا أصدقك.. لا أدري ما نوع هذه المشاعر التي تتملكنا معاً بعد خمس سنوات من الفراق، ولكن مهما كانت فأنت تشعرين بها أيضاً.

تخلت عن الجزء المقاوم فيها باستثناء شعور دفين جعلها تحسّ بالتعاسة وهي تعلم أن ما من شيء اكثر إذلالاً من الوقوع في حب رجل لا يحتقرها فقط، بل يحتقر نفسه لشوقه إليها.

رويداً رويداً عادت نبضات القلبين إلى طبيعتها، ابتعد كين عنها تاركاً إياها تشعر فجأة بالبرودة والهجران. وإذ أخذت تتأمله، رأت فيه تألقاً قد يكون سعادة ولكنه انتصار بكل تأكيد.

مدّ ذراعه يضمها إليه ويضع رأسها على كتفه وقال: دعينا نترك الآن كل هذه الأحاديث عن الانفصال، ثم نضع بعض الخطط لمستقبلنا.

لا يظن إذن أنه ربح المعركة فقط، بل الحرب كلها. حسناً.. إنه مخطىء! ابتعدت عنه نافرة، وعندما رأته ينظر إليها متسائلاً، نطقت بأول شيء خطر لها: كم الوقت الآن؟

ـ الواحدة والنصف تقريباً.

هتفت غير مصدقة: الواحدة والنصف؟

فقال ضاحكاً: حسناً، لم ننم الليل، وفي مثل هذا الجوّ الملبّد بالغيوم، لا يهم لو بقينا في السرير حتى العصر.

فقالت دون تفكير: «يهمني أنا».

وإذ لاحظت تغيّر ملامحه، أسرعت تقول: أريد أن أجهز شيئاً نأكله.

ـ حسناً، علينا تعويض خمس سنوات من الفراق، وهذه هي بداية شهر عسلنا... إذا شئت أن تبقي حيث أنت، فسأغزو مخزن المأكولات ومن ثم نتناول غداءنا في السرير.

قالت بما أمكنها من هدوء: أفضّل أن أنهض كما قلت من قبل. لا أحب الأكل في الفراش.

ـ حسناً جداً.

وافق على ذلك بكراهية بادية، ثم عانقها عناقاً خاطفاً.

أسرعت ترتدي معطفها المنزلي وتخرج من الغرفة.

عادت إلى غرفتها فاغتسلت وارتدت ملابسها بسرعة قياسية. كلما أسرعا بالأكل ومغادرة الجزيرة كلما كان ذلك أفضل وبناسبها أكثر، كل دقيقة تقضيها مع كين تزيدها ضعفاً... وهي لا تريد ذلك.

إذا عادت إليه وهي تعلم رأيه فيها، سيضايقها ذلك ليلاً نهاراً ويدمّر كل فرصة للسعادة. وعندما تنتهي حرارة حبه ويسأمها، سيكون فراقهما النهائي لا يطاق.

ارتدت تنورة وكنزة، تاركة شعرها منسدلاً على كتفيها، ثم وضعت بقية أشيائها في الحقيبة ونزلت إلى المطبخ.

دخلت مخزن المؤونة وأخذت تبحث بسرعة فأخرجت علب سجق

وبيضاً وبندورة ثم قلت ذلك كله.

كان إبريق القهوة جاهزاً، وكانت تسكب الطعام عندما ظهر كين مرتدياً بنطلوناً رمادياً أنيقاً وقميصاً رياضياً أسود.

ـ يا للرائحة الشهية!

جرّ كرسياً جلس عليه إلى المائدة، وأكل بشهية وهو يتساءل عن أفضل الطرق في التعامل مع الوضع عندما يعودان إلى لندن، بينما كانت اليزابيث تلتقط لقمات من طعامها دون شهية.

سألها فجأة: «هل هناك شيء؟».

أجفلت لهذا السؤال: «لا. لا بالطبع».

ـ تبدين مشغولة الفكر، وهذا يجعلني أتساءل عما إذا كنت تخططين لشيء».

* * *

www.rewity.com
marmoria555

٧ ـ ضاعت في بحر الرمال

ـ كنت أفكر.

لوى شفتيه: أفكارك لا تبدو سعيدة بالنظر إلى ما يبدو على ملامحك.

قالت وهي تلعن نفسها، عالمة بأن عليها أن تبدد شكوكه: لا أدري كيف أواجه ريتشارد وأخبره بالأمر. إنني واثقة من أن هذا سيشكل له صدمة.

ـ لن يعجبه طبعاً حقيقة أن تكون المرأة التي يظنها له، لي أنا. وعلى كل حال، سأجعله يحصل على الماسة من باب التعزية.

رأى ما ارتسم على ملامح اليزابيث، فقال: ربما لا تريدين أن يأخذها، ربما تفضلين الاحتفاظ بها لنفسك.

ـ لا، بكل تأكيد.

ـ لماذا إذن هذا العبوس؟

ـ رأيت في هذا القول قسوة. مسكين ريتشارد! سيتألم ويشعر بالتعاسة.

ـ في رأيي أنه سيكون اكثر ألماً وتعاسة بكثير إذا ذهبت إليه وتزوجته... كنت، في البداية، أشعر بغيرة هائلة كلما جاء ذكر اسمه، إلى أن أدركت رغم محاولتك إقناعنا، أنا وهو، بالعكس، أدركت أن شعورك نحوه ليس سوى العطف... وأنا أؤمن بأن كل رجل يجب أن تكون له زوجة تحبه.

ـ باستثناء نفسك؟

قالت هذا دون تفكير.

فقال دون أن يبدو عليه الانزعاج: قد لا تكونين مغرمة بي، لكنني أظن

شعورك نحوي أقوى من شعورك نحوه.

لم تستطع إنكار ذلك. شعورها نحو ريتشارد لا يعدو المودة والاحترام والمحبة البريئة، بينما شعورها نحو كين أكثر عمقاً وتعقيداً... هو مزيج من الحب وما يشبه الكراهية... حنين للبقاء معه ورغبة في الهرب منه.. حنان ودفء لا حد لهما مع كراهية حادة لرأيه فيها.

أخذ كين يراقبها من تحت أهدابه وكأنه يتوقع منها اعتراضاً، لكنها بقيت صامتة.

سألها بعد لحظة: المفروض أن تتحدثي إلى بومونت قبل ذهابنا إلى أميركا.

ـ نعم.

كانت تريد أن تتحدث إلى ريتشارد في أسرع وقت ممكن، لكنها لا تنوي الذهاب إلى أميركا أو إلى أيّ مكان آخر مع كين، رغم أن غريزة التحفظ أنذرتها بأن الوقت غير مناسب لذكر هذا.

من الحكمة أن تدّعي الموافقة على خطته إلى أن تصل إلى بيتها بأمان وتقفل الباب في وجهه...

وتابع يقول: لا ينبغي الاعتراف لخطيبك بأن لديك زوجاً على التليفون وهذا يعني انتظار عودته من أمستردام. وحتى هذا يحتمّ علينا أن نسافر يوم الأربعاء أو الخميس على الأقل. وإذا سافرنا بعد ذلك مباشرة إلى نيويورك قد أتمكّن من احتلال مقعدي في «مؤتمر المصارف العالمي» قبل أن نبدأ رحلة شهر العسل. وبمناسبة ذكر شهر العسل، لا أدري إذا كانت «هاواي» تعجبك إلا إذا كنت تفضلين مكاناً خاصاً تريدين رؤيته.

رأته ينتظر جواباً، فتمتمت تقول إن «هاواي» رائعة، وإذ خافت أن يقرأ أفكارها، نهضت تخلي المائدة.

سألها وهو ينهض واقفاً: أتريدين مساعدة؟

ـ لا، شكراً.

أجابته بذلك بأدب دون أن تنظر في اتجاهه، وما لبثت أن سمعته يغادر

www.rewity.com

المطبخ.

رأت، من خلال النافذة، الضباب يتكاثف، وإذا لم يسرعا بالرحيل ستصبح الرحلة إلى لندن محفوفة بالمخاطر.

بعد أن أنهت تنظيم كل شيء، أسرعت اليزابيث إلى غرفتها لتحضر حقيبة ملابسها وحقيبة يدها، ثم تركتهما في الردهة وذهبت تبحث عنه.

تملكها الذعر والدهشة معاً وهي ترى الأنوار في المكتب مضاءة، والمدفأة مشتعلة، بينما جلس وكأنه استقر للنهار بأكمله، وأخذ ينقب في كومة من الدفاتر.

عندما رفع بصره سألته بفروغ صبر: أما ينبغي لنا الإسراع بالرحيل؟

سألها ببساطة: «لِمَ العجلة؟»؟

ـ حسناً، لا... لا نريد أن يفوتنا الجزر... كما أن الضباب ينذر بالتكاثف.

ـ لن تكون مأساة فيما لو اضطررنا للبقاء، رغم أن طعامنا سيكون فقيراً بعض الشيء، إلا أننا لن نجوع.

ـ لا ولكنني... لكنني أريد العودة.

ـ هل هنالك ما يدعوك إلى الإسراع؟

أجابت بسرعة: لا أشعر بالارتياح هنا. تذكر أنني لم أكن أريد القدوم منذ البداية.

ـ تأنيب الضمير؟

ـ لا.

قال جاداً: «في هذه الحالة، لماذا لا تجلسين أمام المدفأة حتى أنهي التنقيب في هذه؟».

وعندما جلست، سألها: بالمناسبة، هل تعلمين ما إذا اعتاد هنري الاحتفاظ بمفكرات؟

هزت رأسها: لا أظن ذلك. أعرف أنه كان يكتب كثيراً، لكنني لم أره يكتب في أي شيء يشبه المفكرة.

بعد برهة، ابتدأ الخمول يضغط على أعصابها، نظرت إليه فرأت عينيه مسمّرتين علي وجهها: يبدو عليك عدم الارتياح.

ـ أنا فعلاً غير مرتاحة.

ـ كنت مغرمة بالقراءة، وهنا كثير من الكتب.

ـ لا أستطيع الاستقرار للقراءة، أفكاري مشغولة بكل ما عليّ مواجهته عندما نعود إلى المدينة.

بقي كين ينظر إليها صامتاً.

شعرت بالاضطراب وهو ينظر إليها متأملاً بعينين ضيقتين، فقالت متلعثمة: ولكن بما أن لديك مقعداً في «مؤتمر المصارف العالمي»، يمكن أن تسبقني بالذهاب...

ـ هذا ما لن أفعله.

كان في صوته وملامحه ما يوحي بأنه لا يثق تماماً باستسلامها هذا، وكأنه يريد إثبات ذلك، قال: آخر مرة ذهبت فيها إلى أميركا وتركتك وحدك، عدت فوجدت العصفور طار من القفص.

ـ آه.. لكنني...

ـ حينذاك كنت مضطراً للذهاب كيلا يفقد عمي المصرف الذي بقي رئيساً له طوال حياته. أما الآن، فأنا أنوي تماماً تفضيل مصالحي الشخصية على مصلحة العمل.

ثم أضاف بلهجة حاسمة: لقد علمتني التجارب درساً ثميناً وهو ألا أرتكب الغلطة نفسها مرتين..

للأسف لم تتعلم هي هذا الدرس، فلو أنها لم تكن من الضعف بحيث تستسلم له للمرة الثانية، لما كانت الآن في هذا الفخ.

وعاد يقول: لا يا حلوتي جو، سأبقى بجانبك ليلاً نهاراً إلى أن أقتنع بأنك حقاً تريدين البقاء معي.

ـ ما أجمل هذا!.

ـ أهي ملاحظة غاضبة منك؟

www.rewity.com

ـ هذا يجعلك أشبه بسجّان.

أجاب هازاً كتفيه: الحاجة تفرض ذلك.

ثم عاد إلى البحث في الدفاتر.

هبط قلبها وهي ترى أن فكرة الذهاب إلى كوخها في المدينة وإقفال الباب في وجهه، لن تنجح. . . لن يستسلم ما دام يعرف مقرّ إقامتها.

لن يستطيع إرغامها على الذهاب معه. . ستقاومه كما تقاوم نفسها، ولكن إلى متى يستمر ذلك؟ عليها ألا تذهب معه وكلما أسرعت في الابتعاد عنه كلما كان ذلك أفضل. كل لحظة يمضيانها معاً كانت سيطرته عليها تزداد وتعمق.

يبدو أن أفضل طريقة للتحرر منه هي الهرب بسرعة كما فعلت من قبل. رغم أنها لم تكن تشعر بالسعادة أو البهجة أو الرغبة في الضحك، وظلت في حالة ألم وندم مستمرين على ما حصل، إلا أنها شفيت من هذا كله الآن. . . وبإمكانها أن تقدم على ذلك مرة أخرى، هذا إذا استطاعت الهرب.

لكنها في المرة الماضية فاجأته بذلك. أما الأمر هذه المرة، فأصعب بكثير، وكما قال لتوّه، إذا عادا إلى لندن، فسيلازمها على الدوام.

عندما أخذت تدرس كافة الإمكانيات، خطر لها خاطر جريء: هل يمكنها الهرب الآن أثناء انشغاله؟ إذا أمكنها أخذ السيارة رغم الضباب، ستتمكن من أن تصل إلى المدينة عند المساء.

يمكنه بكل تأكيد، أن يلحق بها بكل ما يمكنه من الوسائل. . . ولكن إذا رحلت الآن، يمكنها أخذ حاجياتها القليلة، وتترك السيارة خارج الكوخ، ثم تختفي قبل ظهوره.

نعم. . . قد تنجح هذه الخطة. هذا إذا تمكنت من العثور على مفاتيح السيارة، ولم يفتها الجزر. . .

بدأت بتنفيذ خطتها فقفزت من مكانها.

رفع بصره وسألها: هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟

كان ذهنها صافياً، لذا جاء جوابها دون تردد: قلت أمس إنك ترغب في إخلاء المنزل. سأشغل نفسي بتوضيب ملابسي وأشيائي التي ما زالت في غرفتي لإرسالها إلى المؤسسات الخيرية. . .

ثم سألته بلهجة عفوية: «هل لديك فكرة إلى متى ستستمر في العمل؟».

ـ أشك في أنني سأنتهي اليوم، أريد أن أتفحص هذه الدفاتر، وما زال عليّ تفحص محتويات الخزنة للعثور على الحلية التي تركها أبي لك. أرجو ألا يكون لديك مانع في بقائنا هنا هذه الليلة أيضاً.

قد يكون هذا بالضبط ما تحتاج إليه. إذا استطاعت الخروج بأمان وتركه هنا وحده، فهذا يمنحها المزيد من الوقت.

ـ لا، لا مانع لديّ.

أدركت أنها قالت ذلك بلهفة، فحاولت أن تبدو كارهة للأمر، فعادت تقول: لا فائدة من الممانعة.

ولتبدّد أي شك قد يراوده، قالت: سأرى ما في الثلاجة لتحضير العشاء. هل تحب شيئاً معيناً؟

ـ لا في الواقع، أريده مفاجأة منك.

وهذا ما سيحصل عليه بشيء من الحظ. . .

كانت السترة التي ارتدتها في اليوم السابق ملقاة على الكرسي وهي الوحيدة التي لديها، لكنها إذا أخذتها، ستثير شكوكه، فلتتركها إذن وتتدبّر أمرها بدونها. عندما اتجهت نحو الباب قال: عانقيني قبل ذهابك.

بدا شعره أشعث وكأنه كان يتخلله بأصابعه وسقطت خصلة منه على جبينه، فبدا وكأنه صبي ضعيف بشكل غريب.

تمثلت فجأة أمام اليزابيث صورة حية لطفولته، للصبي الصغير الذي كانه. . صغيراً حساساً متلهفاً إلى من يحبه ويريده بعد موت أمه، شاعراً بالهجران من المرأة الثانية التي أحبها، وبعد أن نبذه أبوه. . .

سارت إليه عند المكتب، وانحنت تلثم وجنته، وشعرت بحنان فائق

وحزن كبير لأنه لا يحبها كما تحبه. وعندما وقفت قال شاكياً: كنت أتوقع عناقاً حقيقاً.

انقبض قلبها فربما هي المرة الأخيرة التي تعانقه فيها فانحنت تعانقه بسرعة، ولكن هذا العناق الذي يفجر في نفسها عادة آلاف المشاعر، لم يحرّك الآن في نفسها ساكناً.

تمتم يقول: «هذا أحسن».

فجأة جذبها إليه وعانقها بحرارة فأوقظ بذلك مشاعرهما هما الاثنان.

تملصت منه وقد غاصت عيناهابالمشاعر.. كان إحساساً عنيفاً ساحراً، لكنها إذا استسلمت له فلن تنال سوى المرارة.

عندما أراد احتجازها مرة أخرى، تملصت وهي تقول بصوت أبح: لدينا، نحن الاثنين، عمل علينا إنجازه. فإذا بقينا بهذه الحال، لن يمكننا أبداً العودة إلى لندن.

ـ لم أكن أعلم أي امرأة عاقلة تزوجت.

ثم تركها.

اتجهت نحو الباب ببطء ومع أنها تعلم أنه يلاحقها بنظراته إلا أنها لم تنظر خلفها.

صعدت بسرعة إلى غرفة كين. كانت سترته موضوعة على ظهر كرسي.

أخذت تفتش جيوب السترة بسرعة... وجدت محفظة نقود، رخصة قيادة دولية، مشطاً صغيراً، سكينة جيب ومنديلاً، ثم بعد أن أوشكت أن تقطع الأمل، وجدت المفاتيح. لكنها كانت مفاتيح منزل، أين إذن مفاتيح السيارة؟

دون كثير من الأمل، فتشت حقيبة ملابسه الصغيرة، ملابس النوم، فلم تجدها. لا بد أن المفاتيح في جيب بنطلونه الذي يرتديه. لم يبق لها سوى العبور سيراً على قدميها.

ثم ماذا؟ القطار؟ أم تستأجر سيارة؟ ولكن هذين الخيارين يستغرقان

وقتاً، وهو حالما يدرك أنها رحلت، سيلحق بها إذا كان ممر العبور ما زال سالكاً.

حسناً، ليس لها سوى أن تدعو الله أن يفوته الجزر، لم تجرؤ على التفكير في خلاف ذلك.

وفجأة تذكرت صديقتها جيني هيكس التي تسكن سالمارش ولا يعرفها كين. يمكنها أن تختبيء عندها، وبعد ذلك تذهب إلى لندن أو إلى مدينة كبيرة أخرى حيث يسهل عليها الاختفاء فهي تحمل نقوداً وكذلك دفتر الشيكات...

هبطت السلم بسرعة وحملت حقيبة كتفها.. بدا لها من الأفضل أن تترك حقيبة ثيابها، إذ بدونها تستطيع أن تسرع في سيرها. وإذا مرّ كين في الردهة، قد يمحو وجودها أي شكوك تراوده.

ربما يسر جيني أن تعيرها شيئاً من ثيابها إلى أن تتمكن من التسوّق.

تصاعد صرير مفاصل الباب الخارجي الثقيل قليلاً وهي تفتحه فحبست أنفاسها، وعندما لم تسمع صوت حركة من المكتب، تنهدت بارتياح وجذبت الباب خلفها.

حالما أصبحت في الخارج، التف الضباب البارد الرطب حولها فأخذت ترتجف، لكنها حدثت نفسها بأنها إذا أسرعت في السير لن تشعر بالبرد. كانت السيارة واقفة أمام الكاراج حيث تركها كين، فأسرعت تمرّ بها آسفة إلى حيث الطريق المرصوف وقد سرّها أن المكتب يقع في الناحية الأخرى من المنزل.

ولكن حتى ولو تمكن كين من النظر إلى الخارج في ذلك الاتجاه، فهو لن يراها بسهولة، فقد كان الضباب أكثف مما كانت تتصور. وعندما وصلت إلى الشاطيء نظرت خلفها. لم يكن المنزل الآن سوى كتلة ضخمة مبهمة الشكل في الظلام.

أخذت أسنانها تصطك وقد تخلل البرد القارس عظامها. نظرت أمامها، إلى بعد حوالى نصف ميل، إلى الأرض اليابسة المحجوبة جزئياً

www.rewity.com marmoria5555

بالضباب، كانت أضواء المدينة تبعث الدفء والأمان.

حمدت الله لأنها انتعلت حذاء منخفض الكعب، وأسرعت قدر إمكانها، تركض حيناً وتسير أحياناً.

هربها في هذا الاتجاه يعني أنها لم تعد تجرؤ على الذهاب إلى بيتها في المدينة، فمن المؤكد أن كين سيضعه تحت المراقبة. وفي أول فرصة تسنح لها، ستتصل بإميلي هندرسون في أستراليا وتسألها ماذا تريد منها أن تفعل بالمفاتيح، ثم تجد شخصاً آخر للعناية بالكوخ.

كانت المشكلة الكبرى هي إخبار ريتشارد بالأمر، فهي لم تكن واثقة مما عليها أن تخبره به، لكنها ستكتب له في أسرع وقت ممكن وتخبره بفسخ الخطوبة. هذه الطريقة جبانة، لكنها لا تجرؤ على رؤيته.

بدت الطريق طويلة طويلة. ومع أنها كانت تسير بأسرع ما يمكنها، فقد شعرت وكأنها شُلّت برداً، وتملكها الهلع وهي تلاحظ أنه أثناء الثواني القليلة الماضية اختفت العلامات البيضاء التي تحدد جانبيّ الطريق وكذلك أضواء المدينة.

أخذت تقاوم ذعرها وهي تحاول التفكير منطقياً... الشيء الوحيد الذي يمكنها القيام به هو متابعة السير، لا بد أنها اقتربت الآن من اليابسة وكلما ابتعدت عن البحر تحسنت الرؤية.

تحسست طريقها كالعميان وسرعان ما شعرت بالأرض تحت قدميها رملية طرية بدلاً من أسمنت الطريق. وقفت فجأة مترددة، وشعرت بموجة من الماء المثلج حول كاحليها والرمال المشبعة بالماء تحت قدميها.

فقدت توازنها، وانزلقت حقيبتها من كتفها، فانحنت تتلمس طريقها محاولة العثور عليها، وإذا بموجة أخرى تندفع تغمر ذراعيها إلى المرفقين، فكادت تقع.

تخلت عن حقيبتها، واستقامت واقفة ثم استدارت لتعود أدراجها من حيث جاءت، لكنها وجدت نفسها تتخبط في مياه أكثر عمقاً.

جمدت في مكانها وقد تملكها اضطراب بالغ ولكن الوقت كان قصيراً

فشعرت بالخوف وهي ترى المدّ يسرع بالارتفاع على امتداد الشاطىء المنبسط.

* * *

دفعها الرعب إلى اتخاذ خطوات يائسة ولكن فكرة أكثر رعباً جمدتها في مكانها وجعلت قلبها يخفق بشدة.

عندما جاءت لأول مرة إلى سالمارش، تلقت تحذيراً بألا تخرج قط عن الطريق خوفاً من الرمال المتحركة، فهناك أسطورة من العصر الفيكتوري تقول إن هذه الرمال ابتلعت مرة فارساً وحصانه، آه! يا إلهي، ماذا تفعل؟

- جو...!

أخذ صدى الصوت يترجع في الضباب.

حاولت أن تجيب فلم تستطع.

- «جو..».

وفي هذه المرة كان صياح كين أقرب، ورأت من خلال الضباب الفضي ضوء مصباح ساطع.

- أنا هنا، خارج الطريق.

ولم تستطع أن تخفي الرعب في صوتها.

- لا تتحركي. ابقي حيث أنت وابدئي العدّ. واحد، اثنان...

كان الضباب يحجب الرؤية ويخنق الصوت فيجعل من الصعب تحديد مكانه. أخذت المياه ترتفع إلى ساقيها ما جعلها تنتفض بشكل متكرر. لكنها كانت تثق بتعليمات كين، ركزت نظرها على الضوء البرتقالي، وهي تتابع العد.. ثلاثة، أربعة...

كانت قد وصلت إلى الخمسة عشرة عندما انطفأ الضوء.

- كين.

صرخة الرعب اللاإرادية تلقت جوابها المطمئن: لا بأس. أنا هنا.

وبعد ذلك بلحظة أو اثنتين برز من الضباب جسم قاتم وقف بقربها.

ـ أعطيني يدك.

ثم أخذ يقودها بثقة أثارت عجبها، وبعد خطوات مترنحة شعرت بإسمنت الطريق تحت قدميها.

ـ تمسّكي بذراعي وأبعدي رأسك.

تمسّكت بذراعه بشدة، وفعلت ما طلبه منها، ورأت ضوءاً آخر ينفجر بنور ساطع.

أضاء النور الوردي ستار الضباب، فظهرت علامات الطريق للحظة ثم اختفت. حمل المصباح بيده، ووضع يده الأخرى حول خصرها وقال: المدّ يرتفع بسرعة، وعلينا أن نسرع.

رغم هدوء صوته، شعرت به متعجلاً. كان جسمها بارداً كالثلج وقدماها فاقدتي الإحساس... حاولت جهدها، لكن المياه وصلت الآن إلى الركبتين، وهي تزداد عمقاً.

تعثرت في سيرها، فأخذ يستعجلها وهو يتمتم بشيء من بين أسنانه. كانت تعلم أن حياته وحياتها معرّضتان للخطر، فصرّت بأسنانها وأخذت تكافح في سبيل التقدم، ولكنها كانت من الضعف والخدر بحيث كانت قواها تنهار بسرعة فاضطر كين إلى أن يحملها تقريباً.

بعد عدة أمتار بلغا نهاية الطريق، وعندما وصلا بر الأمان التوت ركبتاها تحتها فجلست فجأة على الأرض.

وضع مصباحه على الرمال ثم خلع سترته وكنزته، ثم أوقف اليزابيث على قدميها وألبسها الكنزة والسترة. كانتا تحتفظان بدفء جسده، وعلى الفور دبّت فيها بعض الحرارة.

قال: «علينا أن نسرع قبل أن...».

وقبل أن يكمل كلامه كان المصباح قد أنطفأ.

ـ هل لديك مصباح آخر؟

سألته ذلك بصوت دهشت لهدوئه.

ـ لا، ولكن لا بأس علينا الآن، سرعان ما نبلغ الطريق.

وضع ذراعه حولها وقادها عبر الظلام. راحت تتساءل عما إذا كانت الغريزة أم الثقة بالنفس هي التي تجعله يسير بهذه السهولة.

ـ لم نعد بعيدين الآن، وسنتمكن من رؤية أضواء الاستراحة بعد فترة قصيرة.

بعد دقائق، ثبتت صحة كلامه، وبعد وقت قصير كان يفتح باب الاستراحة ويدفعها إلى الداخل حيث كانت النيران تتأجج في المدفأة.

كان الرجل الذي خدمهما في اليوم السابق يمسح الزجاج، فبدت عليه الدهشة: لم أتوقع زبائن في وقت كهذا.

وعندما رأى كين مبتلاً تماماً، ووجه اليزابيث الشاحب المرهق، هتف قائلاً: لا بد أنكما وقعتما في ورطة، ما الذي تحتاجانه؟

ـ قهوة ساخنة قبل كل شيء.

توارى صاحب المكان دون كلمة أخرى، وبعد أن قاد كين اليزابيث إلى كرسي بجانب النار، انحنى يخلع حذاءها المبتل ثم يدعك قدميها بين راحتيه. وعندما وصلت القهوة، كان البخار يتصاعد من ملابسها المبللة.

وضعت المرأة البدينة الصينية على أقرب منضدة وهي تقول: صنعت إبريقاً مليئاً فقد أخبرني زوجي أنكما تعرّضتما لمشكلة.

نهض كين واقفاً وملأ فنجان قهوة ووضعه في يد اليزابيث، قبل أن يجيب المرأة بلهجة عادية: حاصرنا الضباب أنا وزوجتي، فأدركنا المدّ.

قالت المرأة بعطف: المدّ يهجم بسرعة في هذه الأنحاء، والنجاة منه معجزة حقاً. أظنكما من المنزل الكبير.

ـ نعم.

ـ هل خرجتما لقضاء بعض الأعمال؟ حسناً، لن تستطيعا العودة اليوم، ستحتاجان إلى حمام ساخن وغرفة للمبيت.

ـ نعم من فضلك.

ـ الغرفة رقم ثلاثة لها حمام خاص. سأصعد وأشعل فيها المدفأة، هنالك تدفئة مركزية طبعاً، ولكن المدفأة تضفي جواً اكثر إشراقاً، وسأضع

لكما كل ما يلزمكما.

ونظرت إلى وجه اليزابيث الشاحب وقالت بعطف: يبدو عليك الإنهاك الشديد، إذا كنت بحاجة إلى مساعدة...

ـ شكراً، لكنني سأكون بخير.

والتفتت المرأة إلى كين قائلة: تحتاجان وجبة طعام كاملة وليس طعام خفيف، بفتيك وكبد وفطائر تفاح بعد ذلك.

ـ هذا يبدو رائعاً.

ـ سأحضر الصينية حوالى السابعة، وإذا شئتما أن أغسل وأجفف ثيابكما المبتلة فأعطياني إياها.

كانت القهوة ساخنة قوية، وما أن شربت اليزابيث فنجانين منها حتى تبدد البرد القطيع الذي كانت تشعر به وابتدأت الحياة تعود إلى أعضائها... سألها كين: أتريدين المزيد من القهوة؟

هزت رأسها نفياً: إذن، أقترح أن تخلعي ثيابك المبتلة هذه، ثم تأخذي حماماً ساخناً.

حاولت الوقوف، فوجدت ساقيها ترتجفان لا تكادان تحملانها ما جعل عينيها تدمعان.

هرع كين إليها. همست: «أنا آسفة، أنا لا أبكي إنما هو الألم فقط».

وإذا بدمعتين تتدحرجان على خديها.

تمتم كين شيئاً بصوت منخفض، ثم حملها بين ذراعيه وصعد بها السلم.. شعرت بتوتر كل عضلة في جسمه، وعندما ألقت عليه نظرة سريعة متوترة، أدركت أنه كان يتميّز غيظاً.

تملكها الخوف فجأة من البقاء وحدها في الغرفة معه، وتمنت لو قبلت مساعدة المرأة لها، ولكنها على كل حال، عليها أن تواجه غضبه عاجلاً أم آجلاً.

* * *

٨ ـ تحيا بدونه أو تموت معه؟

عندما وصلا إلى غرفتهما حيث كانت المدفأة مشتعلة، كانت كل أعضائها ترتجف.

قالت بلهجة الاعتذار: لا أدري لماذا أرتجف...

ـ إنها صدمة بطيئة.

أعطى رأيه هذا باختصار وهو يخلع عنها ثيابها ويدخلها الحمام ويضعها بحذر على مقعد صغير ثم يفتح صنابير الماء.

عندما دخلت الماء الدافىء تلاشى التصلب في أعضائها لكنها ظلّت ترتجف، واستسلمت لاسعافه لها وكأنها طفلة مرهقة.

ألقت برأسها إلى الخلف، وارتاحت إلى الدفء الغامر، ثم سألها: هل أنت على ما يرام؟

ـ نعم، شكراً.

ـ هل تريدين شيئاً؟

قالت وقد أخذت تهتم به الآن: نعم.. أريد منك أن تخلع ثيابك المبتلة.

ـ حسناً... سأنزعها في الغرفة فهل ستكونين بخير؟

ـ نعم سأكون بخير.

إنه يسيطر على غضبه ويتكلم معها وكأنهما مذنبان. قال يحذّرها: «إياك أن تنامي».

ـ لن أفعل هذا.

كان عليها أن تشكر الله لأنه من هذا النوع من الرجال، حيث أن قوة إرادته وشجاعته تتلاءمان مع قوته الجسدية، في أحوال كهذه، ما كان رجل آخر ليخرج للبحث عنها، ناهيك عن المغامرة بحياته لإنقاذها.

لم يمض وقت قصير حتى أخذت تشعر بالراحة والنعاس وعندما عاد كين، كانت خلافاً لوعدها، قد أوشكت على النوم.

ـ حان وقت الذهاب إلى السرير... هل يمكنك العناية بنفسك أم تريدين مساعدة؟

أجابت محتفظة بكرامتها رغم نعاسها: «يمكنني تدبّر أمري شكراً».

ـ إذن، سأنزل الثياب المبللة إلى الطابق السفلي.

نظرت إليه وهو يخرج، فشعرت بخيبة أمل. جففت نفسها بذراعين ثقيلتين وكذلك شعرها، ومشطته قبل أن تلبس معطف الحمام.

خرجت إلى غرفة النوم، وهي نفسها التي كانا أقاما فيها هي وكين من قبل، فوجدتها دافئة مريحة... كانت المدفأة مشتعلة والمصباح بجانب السرير مضاء.

لم يكن كين قد عاد، فشعرت فجأة بالوحدة والوحشة وكان هذا غباء منها، كما أخذت تفكر وهي ترتقي السرير، فالوحدة تريحها وتناسبها لأنها اعتادت عليها.

ولكن يا لها من طريقة محزنة يمضي بها الشخص حياته!

مهما كان رأي كين بها، فهي لم تهتم قط بالمال، الشيء الوحيد الذي تريده في حياتها هو أن تحب وتكون محبوبة، وهو أمر يبدو أنها لن تحصل عليه أبداً...

واغرورقت عيناها فجأة بالدموع فتركتها تنهمر على وجنتيها عاجزة عن منعها.

كان الفراش مريحاً والوسائد ناعمة، وعندما عاد كين بعد نحو دقيقة، كانت مستغرقة في النوم وقد انتشر شعرها الأسود على الوسادة ووجهها

الشاحب ما زال مبللاً بالدموع.

وقف ينظر إليها بكآبة، ثم ذهب ليجلس بجانب المدفأة.

* * *

أيقظ اليزابيث طرق على الباب. جلست ناعسة فوجدت نار المدفأة أعيد إضرامها وعشاءهما وصل.

عندما وضعت صاحبة النزل صينية العشاء على مائدة منخفضة بجانب النار، قالت: سأصعد بعد نحو نصف ساعة لآخذ الصينية وأحضر القهوة، إذا أردتما شيئاً أخبراني.

شكرها كين، ثم خرجت.

التفت إلى اليزابيث وقال بتهذيب الغريب: ما زال الإرهاق يبدو عليك، أتريدين تناول الطعام في السرير؟

شعرت بتوعك فعليّ، ورفضت معدتها فكرة الطعام... كل ما تريده هو أن تعود إلى النوم بهدوء، لكنها لم تشأ الاعتراف بضعفها فقالت مرغمة نفسها على الابتسام: «بل أنا في أحسن حال شكراً، وسأنهض حالاً».

ـ كما تشائين.

لقد عادا مرة أخرى إلى التحدث مع بعضهما البعض بتهذيب الغرباء.

كان الطعام ممتازاً، لكنها لم تستطع أكل أكثر من بضع لقيمات، كما لم يأكل كين سوى القليل، وقد بدا التفكير الجاد على وجهه. وتمنت لو تعرف ما وراء مظهره الجامد هذا.

عندما أحضرت المرأة القهوة، أخذت معها الأطباق المستعملة.. كان مرّ عليهما نحو ساعة، وبدلاً من أن يشكر السيدة لم ينطق بكلمة. فالجو بينهما مشحون بالتوتر، وهذا ما جعل اليزابيث على أحرّ من الجمر.

سكب فنجانين من القهوة، ثم حمل فنجانه وأخذ يشربه بصمت. كانت أعصابها على شفا الانهيار، فلم تستطع احتمال التوتر أكثر من ذلك، فانفجرت تقول بصوت أبح: لم أشكرك بعد لأجل...

رفع بصره إليها، لكن التعبير الذي بدا على وجهه جعلها تسكت وقد

www.liilas.com

اقشعر جسمها. وعندما لم ينطق بكلمة، جعلتها اللهفة إلى الحديث إليه تقول: أنا... أنا أعلم أنك غاضب مني ولكن..

بثورة مفاجئة من الغضب الجارف، قال: الغضب وحده لا يكفي لوصف فعلتك هذه. ما فعلته كان حماقة خالصة! لو لم أكتشف رحيلك لمت هناك بكل تأكيد.

ـ مؤكد أنك أنقذت حياتي!

وكان صوتها يرتجف وقد أوشكت على البكاء.

قال وقد توتر فمه: «لا بد أنك تكرهينني إلى حد جعلك تخاطرين بنفسك هكذا.

ـ لا.

فضحك بخشونة: لا فائدة من الإنكار.. من الواضح أنك لا تحتملين فكرة الزواج بي. كنت أحمق حين ظننت لحظة أنك تريدين البقاء زوجة لي. لو لم أكن مغروراً لأدركت ذلك من تصرفاتك. ربما في أعماقي لم أصدق استسلامك الظاهر، وهذا ما جعلني أشعر بعدم الارتياح فصعدت إلى غرفتك... وعندما لم أجدك هناك، بحثت عنك في المطبخ... عند ذلك رأيت حقيبة يدك مفقودة، رغم أنك تركت حقيبة ملابسك في الردهة. هل أخذتها معك؟

ـ نعم.

ـ ماذا حدث لها؟

ـ فقدتها، انزلقت علاقتها من كتفي دون أن أراها، أخذت أبحث عنها، لكن الماء كان يرتفع فتملكني الرعب.

قال عابساً: «لا عجب في ذلك».

ـ لو لم تلحق بي..

ـ كان إنقاذك بمثابة معجزة. عندما رأيت السيارة ما تزال في مكانها، ظننتك ما زلت في مكان ما في المنزل، لم اكن أصدق أن شخصاً في كامل عقله يتملكه الطيش والتهور إلى حد الخروج سيراً على قدميه في يوم

كهذا، وفي وقت ارتفاع المدّ.

مسح عينيه بيديه ثم عاد يقول بخشونة: أخبريني، إذا كنت مصممة على الرحيل، لماذا لم تأخذي السيارة إذن؟

ـ لم أجد المفاتيح، ظننتها معك.

ـ أتصدقين بأنني تركتها في السيارة؟

يا لسخرية القدر! كان هذا هو المكان الوحيد الذي لم تفكر فيه.. يبدو أن القدر كان يلهو بها.

أرادت أن تجعله يستمر في الكلام لينفّس مشاعر الغضب والمرارة التي تتملكه، فسألته: لماذا لم تستعمل أنت السيارة؟

ـ كان الضباب حينذاك تكاثف ولم يعد بالإمكان المغامرة. كان يمكن أن أصدمك بها. على كل حال، تذكرت أن هناك مصابيح في كاراج القوارب. وأدركت أنني إذا وجدتها سيساعدني ذلك على الذهاب مشياً...

قالت بشعور عميق: «الحمد لله على ذلك. عندما أدركت أنني ضللت الطريق، شعرت بخوف لم أعرف مثله قط، خصوصاً عندما تذكرت الرمال المتحركة..».

قال وقد توترت ملامحه: هل كنت تحاولين التوجه إلى لندن؟

ـ نعم.

ـ هل قررت إلقاء نفسك تحت رحمة بومونت العطوف؟

ـ لا.

ـ إذن، صمّمت على الاختفاء مرة أخرى؟

عضت شفتيها معترفة: نعم، ولكن ليس لأنني أكرهك.. لم اكرهك قط في حياتي. لقد تركتك في المرة الأولى لأنني لم أستطع احتمال العيش مع رجل رأيه بي سيء بذلك الشكل. لو كنت من ذلك النوع من النساء الذي تظنه، لما اهتممت لرأيك بي ما دام بإمكانك توفير الحياة المرفهة لي، ولكن الأمر كان يهمني جداً.

www.rewity.com

بان الجمود على وجهه حتى أصبح من المستحيل التكهن بما إذا أفلحت في إقناعه.

سألها بعد لحظة: وهذه المرة؟

ـ لم يتغيّر شيء. ما زلت تظن أنني طامعة بالمال ودون قلب، لا شك أنك ما زلت كذلك.

قالت هذا آمله.. منه أن ينكر ذلك، لكن هذا لم يحدث بل قال فقط:

ـ وما هي نتيجة هذا كله بالنسبة إلينا؟.

ـ لا أدري.

أخذ يحدق إلى النار لحظة بدت لها دهراً، قبل أن يقول ببطء: ليس سهلاً أن يتخلص الشخص من مفاهيم سابقة، كل شيء يشير إلى أن رأيي هو الحقيقة، ومع ذلك ابتدأت مراجعة أفكاري بالنسبة إلى بعض نواحي علاقتك بأبي.

لاح لها قبس من الأمل، لكنه تابع يقول: وإلى أن أجد برهاناً يحدد شعوركما نحو بعضكما البعض، ستظلين دوماً موضعاً للشك...

فانطفأ قبس الأمل ذاك.

ـ هل كان سيترك نصف ثروته لأي فتاة جميلة عملت كسكرتيرة له فترة قصيرة؟ أشك في ذلك، فهو لم يكن أحمق. لكنك تقولين إن علاقتكما شريفة، وإنك كنت تذهبين إلى غرفته لتلعبا الشطرنج، وإنه لم يغضب عندما أخبرته بأنك ستتركينه لتتزوجيني...

قالت بحدة: وكل هذا صحيح، ولا تنسَ أنه كتب وصيته بعد رحيلي.

ـ ربما كان يرجو أن يغريك هذا بالعودة إليه لأنه كان مجنوناً بك. ربما ظن أنه، ما دمت تركتني، يمكنه أن يأخذك لنفسه...

إنفجرت تقول: هذا كلام فاحش بذيء، فقد كنت متزوجة بابنه.

ـ ربما لم ير في ذلك عقبة صعبة، ربما علم أن الزواج لم يتم ويمكن فسخه... ولكن لو لم أكن مضطراً للعودة إلى أميركا في أسرع وقت لكان

الزواج قد تم دون شك، فكيف علم بأنه لم يتم؟ إلا إذا كنت كذابة في كل شيء...

وعندما فتحت فمها تحتج، تابع يقول: لنفرض أنك لم تخبريه بأننا سنتزوج... لنفترض أنه، بعد فوات الأوان، اكتشف ذلك. وفي لهفته لاستعادتك، جاء إلى لندن ودفعته الغيرة إلى أن يخبرك السبب في زواجي بك.

ـ لا، لم يفعل هذا.

ـ أخبريني بالحقيقة جو.

ـ هذه هي الحقيقة.

ـ قد لا أستطيع معرفة التفاصيل. علمت أن شخصاً زار الشقة تلك الليلة بعد سفري.

ـ لم يكن هنري.

ـ من كان إذن؟ إذا شئت أن أصدقك، فقد حان الوقت لتجيبي عن أسئلتي.

ـ كان ذاك بيبري.

ـ بيبري؟

على الفور، بدا كمن تلقى ضربة قاضية، ثم عاد الجمود إلى وجهه مغطياً الأفكار والمشاعر. بعد لحظة عاد يقول بصوت هادىء: إذن، بيبري هو الذي زارك تلك الليلة؟ كان عليّ أن أعلم قبل الآن أنه التفسير الوحيد المعقول.. لماذا رفضت أن تخبرني بذلك قبل الآن؟

ـ لم... لم أكن أريد أن تعلم، خفت أن يسبب ذلك مزيداً من الخلاف في الأسرة.

ساد صمت بدا فيه وكأنه يزن أقوالها، ثم قال بحذر: هناك شيء أستغربه... إذا كنت بريئة من اللوم كما تقولين، لماذا صدّقت كل ما أخبرك به بيبري؟ ذلك لا...

انفجرت تقول بيأس: لم أشأ أن أصدق شيئاً من هذا، لكنني

اضطررت إلى ذلك. لقد أراني رسالة كنت أنت كتبتها إليه بعد زيارتك الأولى إلى سالمارش، ولم يكن ثمة شك في أنها بخط يدك...

وعندما حاول كين مقاطعتها أسرعت تقول: دعني أذكر لك محتوياتها.

حتى بعد خمس سنوات، كانت تلك الكلمات المدمّرة ما تزال محفورة في ذهنها بأحرف من نار.

ـ إنها تقول: (لا تقلق. سأعود بعد أسبوع أو نحوه.. لقد رأيت الآن بنفسي ما تنويه، ومبلغ شغف هنري بها. سأوقف ألاعيبها هذه حتى ولو كلفني الأمر أن أتزوجها، لا بد أن يلقنها أحد درساً)... هل تنكر أنك كتبت هذا؟

قال بفتور: لا، لا أنكر، هذا ما كنت أشعر به حينذاك.

قالت مغفلة وصف الطعنة الهائلة التي شعرت بها في قلبها حينذاك.

ـ شعرت بما يشبه الصدمة ولم أعرف ما عليّ أن أفعل.

ـ لم يستغرق تصميمك على ما فعلت وقتاً طويلاً.. علمت أنك تركت الشقة بعد وقت قصير.

ـ ساعدني بيبري على ذلك، أخذني إلى أقرب فندق وحجز لي غرفة.

ـ وفي الصباح التالي ذهبت لزيارة محامي الأسرة.

ـ نعم. اقترح بيبري إلغاء الزواج وأعطاني عنوان المحامي.

ـ يبدو أن بيبري كان لا يقدّر بثمن.

قالت بجفاء: كان بيبري شهماً للغاية، حتى إنه عرض عليّ أن يبقى معي إلى أن أتمالك نفسي، وكان قادراً على التفكير السليم.

ـ وهل بقي معك؟

ـ رفضت السماح له بذلك، لسبب واحد وهو أنني أردت الانفراد بنفسي.

قال عابساً: تابعي كلامك ولا تغفلي شيئاً.

ـ سألني كم يوماً مضى على سفرك، وعندما قلت له يومين اقترح علي

تجنب المشادات أن أختفي قبل عودتك، قال إنه سيساعدني في العثور على نزل أمكث فيه وعمل ما...

ظهر حول فم كين خط أبيض بفعل التوتر: أتعنين أنه كان يعلم بمكانك؟

هزت رأسها: لا، لم أشأ أن أورطه معي. لكنني شعرت بالندم لاختفائي دون كلمة شكر له بعد أن تكبد كل ذلك العناء لأجلي...

سألها عابساً: «ألم يخبرك قط سبب تكبده كل ذلك العناء لأجلك؟».

ـ قال إن اللوم يقع عليه في زواجي بك، وهو نادم لأنه لم يرني الرسالة قبل زواجنا. لكنه لم يعلم شيئاً عن الزفاف إلا بعد فوات الأوان، فجاء إلى لندن حال معرفته بذلك.

قال مقطباً جبينه: هناك شيء واحد يحيرني، كيف علم بيبري بأنني سافرت إلى أميركا وبقيت أنت وحدك؟

كان الإنهاك قد بدأ يظهر عليها، فرفعت رأسها بجهد لتجيبه: لقد سمع مكالمة تليفونية بين هنري وعمك... ذلك أن عمك عندما اكتشف أن منافسيه في العمل يخططون لطعنه في ظهره، حاول الاتصال بك في سالمارش. أخبره هنري أنك تزوجت بعد ظهر ذلك النهار بالذات وستمضي الليلة في شقتك قبل الذهاب إلى شهر العسل، عند ذلك رفض عمك أن يزعجك، ولكن عندما أدرك أبوك أن صوتك ضروري جداً لإنقاذ البنك، قال إنه واثق من أنك حالما تعلم بالأمر ستفعل كل ما في وسعك لتسافر في الحال.

وهكذا، حالما اتصل العم تليفونياً بكين وشرح له الأمر اتصل كين بالمطار وتمكن من أن يحصل على مقعد واحد في طائرة مسافرة بعد أقل من ساعة.

لقد قال لها كين حينذاك: إن وصولي إلى هناك في الوقت المناسب هي مسألة حظ، ولكن عليّ أن أحاول، هل تفهمينني؟

أجابت على الفور: «طبعاً أفهمك».

لقد قبلها بشدة حينذاك، قائلاً: إذا لم تسمعي خبراً مني، فهذا معناه أنني في الطائرة، سأعود غداً أو بعد غد.

وقبل مضي ساعتين، وصل ببيري فتمزقت سعادتها وأحلامها في المستقبل بكل قسوة..

اخترق صوت كين أفكارها: يبدو عليك الإنهاك البالغ، حان الوقت لتذهبي إلى فراشك.

آوت إلى السرير بسرور كبير بينما دخل هو الحمام. وعندما خرج، بدلاً من أن ينام في السرير عاد ليجلس أمام النار. كانت الغرفة معتمة ومريحة للغاية ولكنها رغم تعبها البالغ وجدت نفسها عاجزة عن النوم.

رغم أنه على بعد أمتار منها فقط، كانت تعلم أنه يتعمد إقصاءها عن ذهنه، ومرة أخرى شعرت بوحشة لا توصف.

كان قد سألها منذ فترة: ما نتيجة هذا كله بالنسبة إلينا؟

ولم تستطع أن تجيب. ما نتيجة هذا كله؟ انها بحاجة الآن إلى جواب.

قد لا يكون الوضع تغير لكنها هي التي تغيّرت.

لأجل كرامتها، هربت من كين، ليس مرة بل اثنتين... لكن الكرامة رفيق بارد بالمقارنة مع السعادة مهما كانت قصيرة؟ لكن إقامتها معه لن تمنحها سوى سعادة مشوهة، سرعان ما تنتهي بالحزن والمرارة.

ومع ذلك فهذا أفضل من حياة أشبه بالموت من دونه... الحياة نعمة كبرى، لم تدرك قيمتها سوى الآن وهي توشك أن تفقدها.. نعمة يجب أن تكون متعة ومشاركة.. يجب أن تحيا تلك الحياة بكل ذرة منها.

التفتت تنظر إليه في وهج النار المتخافت. بدا وجهه بارداً، فمه متوتراً وفكه متصلباً. ولكن عندما يستلقي بجانبها وتخبره بتغيّر قلبها، لا بد أن تذوب هذه الحواجز الثلجية.

وتنهدت.. ليته فقط يأتي إلى الفراش! وكأنها نطقت بأفكارها بصوت مرتفع، إذ نهض واقفاً وتقدم ينام بجانبها، متحاشياً أن يلمسها.

تساءلت عما عليها أن تقول، وعن أفضل طريقة للتطرّق للموضوع، وانتظرت آملة أن يقوم بالحركة الأولى، أو يفتح الموضوع بأي شكل. ولكن رغم أنه يعلم بأنها مستيقظة تماماً، لم ينظر قط في اتجاهها، بل استلقى محدقاً في السقف بصمت، كما كانت هي بالضبط.

كانت ما تزال مترددة عندما استدار على جانبه مولياً إياها ظهره.

بعد وقت متأخر، وجدت صوتها: «كين...؟».

عندما لم تصدر عنه إشارة بأنه سمعها، تذكرت المثل القديم بأن العمل أعلى صوتاً من الكلمات، فاستجمعت شجاعتها واندست بظهره العريض.

شعرت به يجفل، لكنه لم يتكلم أو يأت بحركة، ولأنها صممت على أن تظفر ببعض التجاوب، أحاطته بذراعها. وبحركة مفاجئة لم تكن مستعدة لها أمسك بيدها يبعدها عنه، ثم التفت إليها يقول بوحشية: «تباً لك، ما الذي تحاولينه؟».

أجفلت مبتعدة من غضبه، وقالت: أحاول أن أجعلك تتحدث إليّ.

استند إلى مرفقه وقال مهدداً: حاذري فآخر ما أريده هو الحديث.

حسناً، على الأقل هو ما زال يريدها. سرّت لذلك وقالت بجرأة:

ـ حسناً، لنبق صامتين إذن.

ـ هل هي آخر مرة قبل أن تتركيني مرة أخرى؟

شعرت فجأة بحاجة إلى الاطمئنان، فسألته: بعد ما حدث، هل تريد مني أن أبقى؟

ـ نعم، أريد منك أن تبقي، وليساعدني الله.

ـ سأبقى إذن.

بدا عليه عدم الاقتناع: متى قررت ذلك؟ عندما سألتك قبل فترة عن نتيجة هذا كله بالنسبة إلينا، قلت إنك لا تدرين.

ـ حسناً، أنا...

ـ أخبريني جو، كم من الوقت سيمرّ قبل أن تقرري الهرب مرة أخرى؟

www.liilas.com

عندما يصبح لديك المال الكافي؟

هز رأسه: «مهما كان شعوري نحوك، لا يمكنني مواجهة حياة متوترة مع امرأة من المحتمل أن تنتهز أول فرصة سانحة للهرب».

ـ لن أهرب، كما تقول.

ـ ولم لا؟ كان الحق معك تماماً، فلا شيء تغيّر.

ـ أنا تغيّرت، إشرافي على الموت جعلني أدرك قيمة الحياة، كما جعلني أدرك أنني أفضل الحياة معك على أن أبقى من دونك.

في الضوء الخافت رأت وجهه يتوتر من الألم.

ـ إلى متى؟

ـ اقترحت هذا الصباح أن نعيش معاً إلى أن تتلاشى مشاعرنا المحمومة نحو بعضنا البعض.

ـ وهل أنت مستعدة لذلك؟

ـ نعم.

ورغم أن جوابها كان حازماً، أدركت أنه لم يقتنع... رفعت إليه وجهها، وبعد تردد قصير ضمها إليه بخفة وعندما أرادت أن تبادله العناق، قال بجفاء: ليس عليك أن تثبتي شيئاً، نامي لأنك مرهقة جداً.

تنهدت في أعماقها وهي تواجه حقيقة أنها رغم نجاحها في كسر جدار الثلج بينهما، لم تحرز من النجاح ما يجعلها تنام بين ذراعيه كما كانت تتمنى... عادت الى مكانها في السرير شاعرة بالضيق والتململ فترة حسبتها دهراً تستمع إلى تنفسه الهادىء المنتظم عالمة أنه ما يزال مستيقظاً. سمعت الساعة تدق الواحدة قبل أن تستغرق في نوم مرهق.

* * *

استيقظت على صرخة رعب مختنقة صدرت عنها.

ـ لا بأس، حبيبتي... كل شيء على ما يرام، إنه مجرد حلم مزعج...

إنه صوت كين، وذراعا كين تحتضنانها وتحميانها... أخذت تشهق لتتنفس وقلبها يخفق بعنف، بينما كان يتمتم مخففاً عنها، فانزاح الرعب عنها.

همست: آسفة، أرجو ألا أكون أزعجت أحداً.

ـ لا تخافي، أنا متأكد من أنك لم تزعجي أحداً.

قالت وهي ترتجف: كنت أغرق في الرمال المتحركة.

ـ لا تفكري في هذا.

وضم رأسها إلى كتفه وقبل جبينها.

ـ عودي إلى النوم، أنت بأمان معي.

ـ لن تدعني أذهب؟

ـ لن أدعك تذهبين.

اطمأنت وأغمضت عينيها، وهذه المرة أصبح نومها عميقاً هادئاً.

* * *

تحركت اليزابيث واستيقظت لتجد نفسها وحيدة في السرير، فشعرت بخيبة أمل موحشة.

جلست ونظرت في أنحاء الغرفة... كانت الغرفة والحمام خاليين، ولا أثر لكين.

من خلال زجاج النافذة المقوّسة، رأت أن الضباب تبدّد... كانت السنائم تحرك أغصان بعض الأشجار، بينما أشعة الشمس الباهتة تحاول التألق.

بالرغم من الصباح المشرق، بدت هذه الغرفة التي أصبحت مألوفة لديها، تعسة مهجورة... الرماد الأبيض يغطي حاجز المدفأة، وبقايا قهوة الليلة الماضية ما زالت على المنضدة، وعلى منضدة صغيرة كانت ملابسها مطوية. سمعت ساعة الجدار تدق الثانية عشرة!

أين ذهب كين يا ترى؟ ربما هو في الأسفل يتحدث إلى صاحبة الاستراحة، وسيطر المنطق على خوفها اللاعقلاني.

www.liilas.com

نزلت من السرير وحملت ثيابها ثم دخلت الحمام .

بعد عشر دقائق، أصبحت مستعدة للذهاب للبحث عنه . كانت متجهة إلى باب غرفة النوم، عندما فُتح الباب ووقف على العتبة، مرتدياً سترته الزيتية اللون وقد شعثت الريح شعره، وكان يحمل في يده حقيبة ملابسها وحزمة ملفوفة في كيس أسود .

تقدم نحوها، فابتسمت له باشراق .

ـ صباح الخير، كيف حالك؟

كانت تحيته الباردة أشبه بصفعة على وجهها .

قالت محاولة إخفاء شعورها بالألم: في أحسن حال، لا . . . لا أدري لماذا تأخرت في النوم بهذا الشكل .

قال وهو يضع حقيبتها على المنضدة: أرادت صاحبة الاستراحة إحضار افطار، لكنني لم أشأ إزعاجك .

قالت متظاهرة بالمرح: يبدو أنك كنت في الخارج .

ـ حالما أصبح الطريق سالكاً، ذهبت لأحضر السيارة، وفي طريقي أخذت أبحث عن هذه .

وفتح الحزمة وأخرج لها حقيبة يدها .

ـ إنها مبتلة ملوثة بالرمال كما ترين، ولأنها مقفلة، كل محتوياتها ما زالت موجودة وبحاجة إلى التجفيف .

أخذتها منه شاكرة، ثم فتحتها . . . تنهدت بسرور وهي تجد السلسلة هدية هنري ومفتاح البيت ما زالا موجودين، أما الأوراق المالية فكانت مبتلة، وبطاقات البنك التي كانت مغلفة بالبلاستيك في حالة حسنة .

سألها: «في حالة جيدة؟» .

ـ أظن ذلك .

قال بلهجة غريبة: لا شك في أنك مسرورة لاستعادتها .

ـ طبعاً، خصوصاً لاستعادة مفاتيح البيت . . . ضياعها مشكلة، هنالك مفاتيح أخرى ولكن . . .

وسكتت فجأة وهي تدرك أن توترها جعلها تثرثر .

نظر إلى ساعته وقال: الغداء ينتظرنا في الطابق الأسفل، لم تأكلي شيئاً الليلة الماضية ولا بد أنك جائعة .

قالت تتظاهر بالبشاشة: متى أردت .

ـ قررت ألا أبقى للغداء، وأفضّل أن أذهب في طريقي .

تملكها انقباض موحش وقالت متلعثمة: ولكن ألن تتغدى معي؟

ـ لقد تأخرت في تناول الإفطار .

ـ إلى أين ستذهب؟

ـ إلى لندن .

ـ من دوني؟

ـ لديّ بعض الأعمال عليّ إنجازها . . أظنك تفضلين البقاء هنا للراحة .

ـ متى ستعود؟

ثم قالت فجأة بقلق: هل ستعود؟

ـ نعم، غداً في وقت ما . . ما زال لديّ عمل في المنزل . بالمناسبة، أجرة الاستراحة مدفوعة بما في ذلك الليلة القادمة . قد تحتاجين إلى نقود قبل أن تجف نقودك . . .

تناول رزمة من الأوراق المالية وضعها بجانب الحقيبة .

إذن لم يصدق أنها ستبقى معه، وهو يمنحها فرصة للرحيل الآن؛ بل أكثر من فرصة . . . كان يشجعها تقريباً، لماذا؟ أتراه يختبرها؟ أم أنه لم يعد يريد البقاء معها؟ لقد غيّرت أحداث أمس الحافلة أفكاره، فهل غيرت أفكارها هو أيضاً؟ ولكنها عندما سألته فيما بعد عما إذا كان يريدها أن تبقى، أجاب بالإيجاب . . . وأثناء الليل، عندما انتابها الكابوس قال لها (حبيبتي) .

إنه طبعاً لم يكن يعني ذلك، ولكن مجرد تذكرها هذه الكلمة بعث في قلبها الدفء وغيّر رأيها .

www.rewity.com
marmoria5555

تناولت حزمة النقود تعيدها إليه قائلة: شكراً، لكنني لن أحتاجها، فأنا أنوي الذهاب معك إلى لندن.

تأملها قائلاً: هل أنت واثقة؟

ـ كل الثقة.

ـ ألا تريدين غداء قبل ذهابنا؟

هزت رأسها: سأطلب بعض السندويشات وآخذها معي..

* * *

٩ ـ أرجوك أن تصدقني!

أمضيا الجزء الأول من الرحلة صامتين. لم تشأ اليزابيث أن تدع ذلك يؤثر في أعصابها، فأكلت أول سندويش، وعندما رفض كين مشاركتها التهمت الثاني. وعندما فتحت سدادة زجاجة الصودا، تصاعدت الرغوة وسالت على أصابعها. فسألته: أيمكنني استعارة منديلك؟.

أجاب بجفاء: المفروض أنك تعلمين في أي جيب هو. خذيه بنفسك.

احمر وجهها قليلاً ومدّت يدها إلى أقرب جيب وأخرجته.. بشكل ما جعلتها هذه الحركة الصغيرة الحميمة، تشعر أنها زوجة.

مسحت أصابعها ثم قدمت إليه الزجاجة: أتريد شيئاً منها؟.

قال عابساً: لا أدري كيف تشربون هذه الأشياء.

أجابت مبتسمة: إنها تروي العطش.

ثم أضافت وهي تنظر إلى ملامح وجهه: ينبغي أن أستعد لمواجهة ريتشارد.

ـ هل تفكرين في رؤيته عصر هذا اليوم؟.

ـ نعم، رغم خوفي من ذلك.

ـ لست مضطرة إلى الذهاب إذا لم تشائي ذلك. أنا مستعد تماماً لأن أخبره بكل شيء.

ـ لا... عليّ أن أخبره بنفسي.

لم تشأ أن تبدو جبانة.

www.rewity.com
marmoria5555

ـ سأذهب معك إذن.

ـ من الأفضل أن أذهب وحدي.

ـ حسب علمي بطبائع الناس أن بومونت لا يحب الخسارة.

أصاب بتعليقه أكثر مما كان يتصور. كان يتابع قائلاً: في مثل هذه الظروف لا أحد يلومه إذا غضب لكنني لا أريد أن يصب جام غضبه عليك.

ـ آه، لكنني . . .

هز كين رأسه بحزم: أنت زوجتي وأريد أن أكون موجوداً . . . هل في ذهنك موعد محدد تزورينه فيه؟.

ـ أريد أن أنتهي من هذا الأمر بأسرع وقت ممكن.

عندما وصلا إلى لندن، اتجه بها كين إلى مسكن ريتشارد في «ساحة لومبارد» . . . كانت الساحة هادئة ذات منازل أنيقة وفي وسطها حديقة يقوم منزل آل بومونت الفخم في إحدى الزوايا. أوقفا السيارة، ثم ساعد كين اليزابيث على النزول منها ورافقها بعد ذلك إلى الباب.

سارت وشعور غريب ينتابها، وهو مزيج من الرهبة لأنها تفضل رؤية ريتشارد وحدها، ومن الراحة لأن كين قرر أن يتدخل في الأمر.

فتحت لهما الباب خادمة أنيقة. وعندما رأت اليزابيث هتفت تقول:

ـ آه، آنسة كافنديش. آسفة لأن اللايدي بومونت غير موجودة. لا أظنها كانت . . .

أجاب كين بهدوء: إن الآنسة كافنديش ترافقني، واسمي هو دارفيل.

ـ آه، نعم، دارفيل. تفضل من هنا. السيد بانتظارك.

قادتهما عبر ردهة فاخرة الأثاث، ثم طرقت باب المكتب وأشارت لهما بالدخول معلنة: الآنسة كافنديش والسيد دارفيل.

ما إن انغلق الباب خلف الخادمة، حتى رفع ريتشارد عينيه عن أوراق كان يدرسها، ثم أومأ إلى كين ببرودة: دارفيل.

ثم نهض وتقدم نحو اليزابيث يقبل خدّها.

ـ هذه مفاجأة حلوة حبيبتي. لم أكن أتوقع رؤيتك قبل الغد. آسف

لأن أمي في الخارج . . . لم أطلعها على خطوبتنا بعد. فكرت أن بإمكاننا . . .

انفجرت تقول:

ـ ريتشارد، قبل أن تقول شيئاً، هناك ما ينبغي أن أقوله لك . . .

وإذ لم يشأ ذلك في حضور منافسه، ألقى عليها نظرة تحذير، ثم قال:

ـ ألا يمكنك الانتظار حتى نصبح وحدنا؟.

مرت بلسانها على شفتيها الجافتين: إنه يتعلق بكين.

رأت عيني ريتشارد تطرفان بشكل غير ظاهر تقريباً وهو يسمعها تلفظ الاسم الأول للرجل الآخر.

ـ إذن، فالأفضل أن تخبريني.

ـ عندما . . . عندما قلت لك إنني لا أعرفه، لم يكن هذا صحيحاً، كنا تعرفنا إلى بعضنا البعض منذ خمس سنوات.

سألها ريتشارد عابساً: ولماذا كذبت؟.

ـ آسفة، ولكن رؤيته بعد ذلك الزمن الطويل كانت صدمة لي و . . .

ـ أتعنين أنك لم تريه طوال خمس سنوات؟.

ـ نعم.

ـ هذا التأثر القوي فيك بعد خمس سنوات يدل على أن علاقتكما لم تكن عادية.

ـ نعم.

ـ هذا يفسّر أشياء كثيرة.

ثم سألها بحدة: ومن أنهى هذه العلاقة؟.

ـ أنا فعلت، ولكن . . .

لأنه كان مستمتعاً بفكرة أن تكون حبيبته قد تركت عدوّه اللدود هذا، قال بشهامة: عزيزتي اليزابيث، أنا لا أتوقع ألا تكون لامرأة بمثل جمالك الرائع وفي السادسة والعشرين، أية علاقات سابقة. وبما أن علاقتكما انتهت منذ خمس سنوات . . .

فقاطعته بيأس: كان ذلك أكثر من مجرد علاقة، كنا متزوجين.

قال مصعوقاً: كنتما متزوجين؟ ولكن عندما طلبت يدك لم تذكري شيئاً عن هذا.

قالت بتعاسة: أعرف أنه كان عليّ أن أخبرك حينذاك لكنني أردت ألا أتذكر الماضي. وكنت أظن أن الزواج فُسخ.

هتف على الفور: فُسخ؟ إنه إذن لم...

أسرعت تقول: بل كان قانونياً. ولكنه لم يكتمل.

ـ قلت إنك ظننته قد فُسخ.

ـ لقد وقعت الأوراق لكن كين لم يفعل.

ـ إذن ما زلتما زوجين قانونياً؟.

ـ نعم، وأنا آسفة. لم أكن أقصد خداعك.

ـ سأتصل بالمحامي في الصباح. طالما أن الزواج لم يتم لن يكون في فسخه مشكلة.

لأول مرة، يتدخل كين الذي كان صامتاً طوال الوقت، قائلاً: أظن ثمة مشكلة كبيرة.

سأله ريتشارد باختصار: وما هي؟

ـ لم يكن الزواج مكتملاً حينذاك، لكنه الآن..

ولم تكن به حاجة لإكمال الجملة، فقد كان المعنى واضحاً.

التفت ريتشارد ووجهه الأشقر بلون القرميد، إلى اليزابيث: إذن تدعيان عدم معرفة بعضكما البعض، وما إن أدير ظهري حتى تخونيني؟ لقد خدعتني أيتها الخداعة الكذابة الساقطة.

ـ أنا آسفة.. صدقني. لم أقصد قط إيذاءك.

تابع ثورته وكأنها لم تتحدث: إذا كنت تتوقعين مني الصفح ومتابعة...

انفجر كين قائلاً بحزم: انتظر لحظة. لقد قالت جو الآن ما تريده واعتذرت إليك. وبما أنني الشخص المسؤول عن كل ذلك، يمكنك

توجيه بقية كلامك إليّ.

وضع مفاتيح السيارة في يد اليزابيث، ثم فتح الباب ودفعها إلى الخارج وهو يقول: لن أتأخر. انتظريني في السيارة.

ثم أغلق الباب خلفها. وأثناء عبورها الردهة، سمعت صوت ريتشارد يرتفع بغضب: تباً لك دارفيل! إذا كنت تظن لحظة واحدة...

عبرت اليزابيث الرصيف وهي ترتجف. إلى حيث كانت السيارة المرسيدس ثم دخلتها. ولكن بعد دقيقة، شعرت بقلق وتململ لم تستطع معهما الانتظار. تركت المفتاح في المحرك، ثم ذهبت تتمشى في حديقة الساحة المشجرة.

سارت اليزابيث على الطريق الضيق حول الساحة وقد تملكها القلق. لم تكن تلوم ريتشارد لغضبه. فقد تخلت عنه بطريقة شائنة. الشيء الوحيد الذي سرّها هو أنه لم يخبر أمه عن (خطوبتهما). لو كانت أمه وأصدقاؤه علموا بالأمر لكان الأمر أكثر سوءاً.

أتمت الدورة، وكانت على وشك الابتداء بالثانية عندما لاحظت أن كين واقف بجانب السيارة. جذب انتباهها شيء في موقفه. كان واقفاً بجمود تام وقد أحنى رأسه.

عندما اقتربت منه رفع بصره. كانت الوحشة تكسو ملامحه وهذا ما جعلها تحبس أنفاسها، لكنها لم تستمر سوى لحظة تبددت بعدها... لم يكن ما لمحته على وجهه من تعاسة وكآبة سوى تخيّلات.

لكنها كانت تعلم أنها لم تتخيل ذلك. ما هو السبب إذن؟.

قال وهو يفتح لها باب السيارة: كنت أتساءل لتوّي أين ذهبت.

هكذا إذن! عندما عاد ليجد السيارة خالية، ظنها هربت مرة أخرى.

صعدت وهي تقول: كنت أتمشى حول الحديقة. تملكني القلق بحيث لم أستطع البقاء جامدة.

عندما جلس بجانبها وأدار المحرك، سألته: كيف.. سارت الأمور؟ أعني، هل كان ريتشارد متألماً جداً..؟.

www.rewity.com

فقال كين بفتور: كان غاضباً أكثر منه متألماً. وسرعان ما اتّضح أن مردّ غضبه هو أنني حرمته من الماسة «ڤان هامل» التي يحرص على اقتنائها. وعندما قلت له إنني على أتم استعداد للتنازل عنها، لامني لأنني لو لم أرفع الثمن لاستطاع الحصول عليها بأربعمائة ألف جنيه. ساومته فترة قبل أن أقبل الثمن الذي كان سيدفعه لو أنني لم أتدخل. ويبدو أنه اعتبر ذلك نوعاً من الانتصار. وهكذا رُدت إليه كرامته. . . .

بقيا فترة صامتين، ثم قالت: إلى أين نحن متوجهان الآن؟ قلت إن لديك أعمالاً تنجزها.

ـ سأذهب الآن لكنني سأوصلك أولاً إلى بيتك.

كان يبدو عليه وكأن ذهنه في مكان آخر، فأخلدت إلى الصمت.

عندما وصلا إلى بيتها، ساعدها على النزول. أخرج حقيبتها من صندوق السيارة وانتظر ريثما فتحت الباب. . . عندما لم يظهر رغبة في الدخول، قالت: ألا تريد تناول شطيرة وفنجان قهوة أولاً؟ لم تأكل شيئاً على الغداء.

هز رأسه قائلاً: سأذهب الآن.

ـ متى ستعود؟ سأعد العشاء.

ـ لا يمكنني أن أجزم، ولكن لا حاجة لإزعاج نفسك بتجهيز عشاء لي.

قالت بسرعة: ليس في الأمر ازعاج.

عاد يهز رأسه: يمكنني تناول شيء في الخارج. وإذا تأخرت أمكث في الفندق كي لا أزعجك.

سألته وقد انتابها خوف مفاجيء: كين، ماذا حدث؟.

قال ساخراً: وماذا يمكن أن يحدث؟.

كان عنيداً صلباً وهي تعرف هذا. أتراه ما يزال متوقعاً منها أن تهرب؟ أيمنحها كل الفرص لتفعل؟ ولكنها عندما تذكرت النظرة التعسة الكئيبة في عينيه عندما ظنها رحلت، عادت إليها ثقتها به.

ناولته المفتاح قائلة: إذا تأخرت، فادخل وحدك دون الحاجة إلى ازعاجي لكنني سأنتظرك على كل حال.

لاحت على فمه شبه ابتسامة جافة ووضع المفتاح في جيبه وتحوّل ليذهب.

ـ ألم تنس شيئاً؟.

نظر إليها رافعاً حاجبيه مستفهماً، فرفعت إليه وجهها ليعانقها. عند ذلك رقّت ملامحه وعانقها باسماً.

تنهدت وهي تفكر أنه ما يزال أمامهما طريق طويل قبل أن تستقر علاقتهما، لم تعرف ما كان يجول في رأسه، فهو لا يثق بها مثقال ذرة.

أرادت قتل الوقت فانصرفت إلى تنظيف البيت حتى تكون جاهزة للسفر إلى أميركا عندما يطلب منها ذلك.

الساعة السابعة والنصف، كان المكان كله نظيفاً منظماً. المائدة معدة بالمناشف والشموع. . . لم يعد ثمة شيء تعمله فاغتسلت وتعطرت ومشطت شعرها الطويل حتى أصبح متألقاً كالحرير الأسود. ثم ارتدت معطفاً منزلياً من الساتان الأحمر هو هدية العيد من السيدة هندرسون وخفضت الضوء وجلست أمام النار تنتظر.

في الثامنة والنصف، شعرت بقلبها كالرصاص، فأطفأت الفرن. قد تمضي ساعات قبل أن يعود كين، هذا إذا عاد. قال إن لديه عملاً. . ولكن أي نوع من العمل سيستمر إلى هذا الوقت؟ وقد يضطره إلى قضاء الليل في الخارج؟.

لم تجد الرغبة في تناول الطعام وحدها، وفكرت في أن تصنع لنفسها شطيرة حين سمعت صوت سيارة تقف أمام الباب ثم المفتاح يدور في القفل ويدخل كين حاملاً باقة ورود وحقيبة أوراقه. . . ذهبت تستقبله بسرور وشوق. في هذه المرة حين عانقها وضعت ذراعيها حول عنقه وبادلته عناقه.

للحظة واحدة رأته يتردد، فدفعتها غريزتها لضمه أكثر. . . ترك حمله

www.rewity.com
mamoria5555

من يده ثم احتضنها معانقاً إياها بلهفة وشغف.

قال بصوت يهتز ما بين الضحك والعاطفة الجياشة: أيتها الساحرة.

ـ أرجو ألا تكون أكلت شيئاً. العشاء في انتظارك.

أجاب وهو ما يزال ممسكاً بها: ومن يهتم بالطعام؟.

قالت بحزم: أنا، لقد تعبت كثيراً لأعدّه.

تركها كارهاً ثم ناولها الأزهار وحمل حقيبته.

ـ أعطيني بضع دقائق لأغتسل وأغير ملابسي.

عاد بسرعة بالغة وقد حلق ذقنه وما زال شعره رطباً من الدوش. كان يرتدي قميصاً حريرياً وبنطلوناً عادياً. نظر إلى الشموع والورود في الوسط ثم تمتم يقول ساخراً: مظاهر شهر العسل.

قدمت اليزابيث له سمك السلمون المدخن والقريدس... راح ينظر إليها وعيناه الخضراوان تتألقان في ضوء الشموع لكن ملامحه كانت جامدة، كما أحست منه شعوراً بالحذر ونوعاً من التمنع وتنهدت وهي تشعر أنه يحاول كبح عواطفه.

أثناء الطعام، حاولت أن تفكر في موضوع تتحدث عنه، لكن ذهنها بقي مغلقاً.

بعد أن قدمت اللحم والخضر، صمّمت على اختراق هذا الصمت، فقالت: عندما أصبحت الساعة الثامنة أخذت أتساءل عما إذا كنت ستأتي.

قال بهدوء: أخبرتك بأنني قد أتأخر.

كانت تعلم وهي تتكلم أنها تبدو وكأنها تتهمه، لكنها قالت: أخبرتني بأنك قد لا تأتي مطلقاً. لكنني لا أفهم ما هو ذلك العمل الذي يبقيك في الخارج طوال الليل بينما...

أتم كلامها ساخراً: بينما نحن في شهر عسلنا؟.

احمر وجهها قليلاً ثم قالت: أنت الذي ذكرت هذه الكلمة أولاً.

ـ قلت ذلك قبل أن تهربي مني للمرة الثانية.

ما زال الأمر يؤلمه إذن. فقالت بحزم: حسناً، أنا هنا الآن، ولن تجد

التخلص مني سهلاً.

ـ لقد ابتدأت تتكلمين تماماً كزوجة.

ساءتها هذه السخرية المكشوفة، فقالت بحدة: وأنا زوجة.

ـ إلى متى؟.

ـ أنت من اقترح أن نبقى معاً حتى تفتر أشواقنا.

ـ هل كنت تفضلين أن أصرّ على أن يكون الالتزام للعمر كله؟ أشك في ذلك.

عضت شفتها بشدة.. هذا ما كانت تريده. رفعت رأسها فالتقت عيناها الدامعتان بعينيه الساخرتين، وقالت: نعم، أفضّل ذلك بشرط ألا نتشاجر.

رقت ملامحه وقال معتذراً: أنا آسف. حاولت أن تجعلي هذا المساء مناسبة خاصة، لكنني كنت فظاً معك.

ومدّ يده يمسك بيدها يرفعها إلى شفتيه: سامحيني.

قالت بابتسامة مرتجفة: لا شيء يستوجب المسامحة.

ـ يا لك من امرأة سخية العواطف! لكنني لا أظنك ستبقين كذلك لو أخبرتك إلى أين ذهبت اليوم بعد أن تركتك.

سألته بفضول: إلى أين ذهبت؟.

ـ إلى كليّتك القديمة لرؤية بيتر كارادين.

ـ ذلك لا يزعجني ثم أرجو أن يكون ما زال هناك.

ـ نعم، وهو الآن رئيس قسم التاريخ. عندما أخبرته من أكون، أبلغني كم شعر بالأسف عندما سمع بموت أبي. سألته إن كان يتذكر تلميذة سابقة لديه ذهبت لتعمل عند هنري، فقال: «نعم، جو ميربل. أتذكر ذلك جيداً». لكن قصتك وقصته غير متطابقتين تماماً.

صرخت: بل ينبغي أن تكونا كذلك. إنها الحقيقة.

ـ صحيح تماماً أن هنري ذهب إليه عندما احتاج إلى سكرتيرة ملمة بالتاريخ. ولكن ليس صحيحاً أن كارادين ذكر اسمك له.

www.rewity.com
marmoria5555

- وافق على أنه قال لك ذلك، ولكن ليس هذا ما حدث في الواقع.

قالت بضعف: لا أفهم.

- يبدو أن هنري كان يبحث بنفسه، وكان يعلم بوجودك فطلب من كارادين أن يتصل بك ويقول إنه هو الذي ذكرك له فعرض عليك الوظيفة. وعندما سأله كارادين عما يمنعه من أن يقدم لك الوظيفة مباشرة، أجاب بأن من المحتمل أن تفضلي أن يكون ذلك بواسطة أستاذك الذي تحترمين، وقد اعترف كارادين أنه لم يكن مرتاحاً إلى مثل هذا الخداع رغم بساطته. وقال إنه لو لم يكن يعرف هنري جيداً، لما وافق على ذلك وهو يريد أن يعلم كيف صارت الأمور. فأرحته بقولي إنكما، أنت وهنري، انسجمتما تماماً. يبدو أن رأيه فيك كان جيداً جداً. قال إنك، بالرغم من حياتك العائلية الفقيرة، كنت فتاة لامعة. فتاة لديها عقل وشجاعة ونزاهة نادرة. ثم تابع يسألني إن كنت أعلم ما حدث لك. وعندما أخبرته بأنك زوجتي صافحني وقال إنني رجل محظوظ.

تراخت يدا اليزابيث اللتان كانتا متقبضتين.

- على الأقل، لم تعد تظنني كاذبة الآن.

- ما لا أعرفه وما يحيرني هو ما كان يهدف إليه أبي؟ أنا لا أصدق لحظة العذر الذي قاله لكارادين...

سألته شاعرة بالارتياح البالغ: بعد كل ذلك الزمن. هل ما زال الأمر مهماً؟.

هز كتفيه: ربما لا.

ولكن ملامحه كذّبت أقواله.

عندما انتهيا من الطعام، نهضت واقفة. فقال: سأنظم كل شيء وأعدّ القهوة. أما أنت فاجلسي أمام النار واستريحي.

أطاعته وجلست على الأريكة وأخذت تنظر إليه يجمع الأطباق ويتجه إلى المطبخ. كان المكان دافئاً مريحاً، وجعلها تحديقها في اللهب تشعر بالنعاس كالقطة.

وعندما عاد بصينية القهوة وجلس بجانبها أمام المدفأة كانت تتثاءب رغم تأخرها في النوم هذا الصباح. ناولها فنجان القهوة وهو يقول: أنا لم أشكرك بعد لهذا الطعام اللذيذ، لم أكن أعلم أنني تزوجت امرأة تجيد الطهي.

- لم أكن أجيد ذلك. ولكنني تعلمت عندما لم أعد أستطيع أكل الطعام المجمّد.

قال برزانة: إذا كنت تعيشين وحدك حقاً طوال السنوات الماضية، فحياتك لم تكن سارة إذن.

- كنت كذلك ولم تكن حياتي سارة. ولكن الإنسان يعتاد على الوحدة.

- ماذا عن والديك؟ أما كنت تتصلين بهما؟. فهمت مما قاله كارادين أنهما كانا محافظين نوعاً ما ولكن لا بد أنهما ساعداك بشكل ما.

- كانا يبذلان دوماً كل ما بإمكانهما لأجلي، لكننا لم نكن قط متقاربين. وعلى كل حال، كانا حينذاك قد توفيا.

- متى توفيا؟ قبل أم بعد أن أخذت تعملين مع أبي؟.

- بعد ذلك. قبل أسبوع أو نحوه من عيد ميلادي الواحد والعشرين.

- كيف توفيا؟.

- في حادث سيارة. كانت أمي تصحب أبي الذي أصابته نوبة قلبية ثانية، إلى المستشفى عندما انقلبت بهما سيارة الإسعاف، وقد علمت فيما بعد أن إحدى العجلات الأمامية انفجرت حين كانت السيارة تسير بسرعة بالغة.

قال كين عابساً: إذن فقد كنت حقاً وحدك... اللعنة على بييري!

قالت مجفلة: ليس ذنب بييري... لم يفعل سوى ما ظنه صواباً.

- لا تتصوري أنه فعل ذلك من باب حب الغير، فعل ما فعل لأسباب أنانية.

- كيف تقول ذلك إزاء رقته وشهامته؟

www.rewity.com
mamoria555

- ألم تتساءلي قط لماذا هذه الرقة والشهامة؟.

- أظنه كان مهتماً بأمري و . . .

- تباً لذلك الاهتمام! إنه المسؤول عن كل التعاسة التي حدثت للجميع.

قالت تحتج:

- كيف تقول مثل هذه الأشياء؟.

- أنا لا أظن، بل أعلم.

- ولكن كل ما فعله هو . . . .

- أنا لا أعني فقط إطلاعك على رسالتي . . . بيبري هو الذي ابتدأ كل شيء. تعمّد التسبب في المتاعب.

وعندما أخذت تهز رأسها، قال: لقد اعترف بنفسه بهذا، هذا المساء.

طار النعاس من عينيها: تحدثت إليه إذن؟.

- بعد أن تركت كارادين، ذهبت لرؤيته. طلبت منه الحقيقة التامة وكنت مستعداً لأضربه لكي أحصل عليها إذا اضطرني لذلك. شعرت أنني أريد قتله.

- ولكن لماذا؟ لا أفهمه.

- ألم تتساءلي قط عما أحضرني إلى انكلترا أول مرة؟.

شهقت وكأنها ابتدأت تفهم: أتعني أن بيبري . . .

- تماماً. كتب بيبري إليّ أولاً محذراً بأن فتاة جميلة نكرة تعمل سكرتيرة تحاول اصطياد والدنا . . . وكنت أنا مشغولاً جداً حينذاك فلم أهتم كثيراً. ثم كتب مرة أخرى مظهراً غاية الذعر، يخبرني أنك تزورين غرفة هنري في الليالي وتتلقين منه الأموال والهدايا معاً . . .

انفجرت غاضبة: ذلك كذب.

تابع كين وكأنها لم تتكلم: قال إن هنري وقع في شراكك وإنه عندما حاول أن يحدث أباه (لكي يتعقل) طرده هذا من أمامه. أضاف أنني إذا لم

أفعل شيئاً بهذا الخصوص، فسننتهي بزوجة أب في الواحدة والعشرين . .

صرخت بصوت أبح: وأنت صدقت كل ما قال لك؟.

- ما يكفي لأهتم بالأمر. وهكذا أخذت عطلة عدة أيام وجئت لأرى بنفسي ما يجري. وبدا لي للوهلة الأولى أن بيبري كان على حق، كانت أشياء كثيرة تجري بينك وبين هنري لا يمكن أن تجري بين رجل وسكرتيرة عادية. أخذت أراقبكما معاً. رأيتك كيف تبتسمين له وتضعين يدك على كتفه . . رأيت كيف كان وجهه يشرق عندما تدخلين الغرفة وكيف أنه لا يكاد يحوّل عينيه عنك . . لكن مصرف عمي في أميركا كان مهدداً بالخطر فاضطررت إلى العودة إلى بوسطن لفترة. عندها كتبت تلك الرسالة لبيبري. ثم عدت إلى سالمارش، حالما علمت أن المصرف أصبح في أمان، حيث قويت قناعتي بأنك تقودين هنري . . .

قالت بعجز: يمكنني أن أرى كيف كانت الأمور تبدو فعلاً حينذاك، ولكن عليك أن تصدق أن ما من شيء كان يجمعنا سوى المحبة البريئة.

هز كين كتفيه بخفة.

- سواء أكانت تلك هي الحقيقة أم لا، فقد كان بيبري يعتقد حقاً أن هنري يحبك، وكان متلهفاً إلى قطع تلك العلاقة. لم يكن يريدك زوجة لأبيه.

- أتعني أنه خشي أن أستولي على أموال أبيه؟.

- هذا ما كنت أفكر فيه دوماً. لكن أفكاره ذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير. عندما علمت أنك عرفت سبب زواجي بك، ظننت أن أبي هنري هو الذي أخبرك بدافع الغيرة. ولكن عندما اكتشفت أن بيبري هو الذي فعل ذلك، لم أفهم شيئاً . . . فإذا كانت الثروة أو انقاذ هنري هو محور اهتمامه، فزواجي بك يلغي هذا الخطر، كما كان يعلم أنك لا تشكلين خطراً عليّ أنا أيضاً لأنني لم أكن مخدوعاً بك وبالتالي يمكنني الاهتمام بنفسي. فلماذا إذن أراك رسالتي وشجّعك على تركي؟ عندما أخبرتني ما حدث بالضبط، أدركت أن ثمة سبب واحد لا غير، وقد اعترف به هذه

الليلة . . .

تسمّرت عيناها على وجه كين، وانتظرت.

ـ ألا يمكنك التكهن؟.

فهزت رأسها نفياً.

ـ كان غارقاً في حبك . . . أنت تركت هنري . . وكان يريد منك أن تتركيني أنا أيضاً. كان يأمل في أن تكوني له يوماً ما . . .

ما إن قال ذلك حتى أدركت اليزابيث، بالغريزة، أن كلامه صحيح. فهو يفسّر موقف بيبري من جهة، وشعورها المبهم غير الواضح من عدم الارتياح لذلك . . .

ـ كان مجنوناً بك منذ البداية . . . وعندما تجاهلته وفضّلت عليه هنري، تملكته الغيرة المحرقة. واستمات في سبيل منع زواجك بهنري، ولهذا السبب استدعاني لكنه لم يكن يتوقع النتيجة. وطبعاً دفع ثمن تدخله ذاك أكثر من مرة. عندما اختفيت واكتشف هنري ما كان يجري، طرده من البيت.

إذن بيبري هو من فعل كل ذلك؟ وشعرت اليزابيث بالدوار. لقد قلب حياتهم جميعاً رأساً على عقب حتى دون ذرة من الشعور . . .

وتابع كين قائلاً وكأنه قرأ أفكارها فأراد نقضها.

ـ اختفاؤك هزّ كيان بيبري، كما اعترف فيما بعد. وعندما نسي حبك، كان ندمه كبيراً لما فعل. أدرك أن لعلاقتنا أهمية أكثر مما كان يظن، وهذا ما جعله يكفّر عما فعل ويرسل إليّ تلك الصورة التي تظهرك مع بومونت . . .

فقالت بحزن: يا ليته فقط لم يخلط الأمور ويشوشها!

ـ يجب أن أقول إن اللوم لا يقع كله على بيبري. لو لم تكن قصته حقيقية تماماً، لرفضتها . . .

فقالت بسرعة: لكنها لم تكن كذلك. كل ما أخبرك به كان إما مشوّهاً وإما كذباً صريحاً. أتمنى لو تصدق أن ما كان بيني وبين هنري كان مجرد

محبة بريئة ولا شيء أكثر أو أقل من ذلك.

ـ لقد ترك لك نصف ثروته.

ذكّرها كين بذلك دون رحمة.

ـ لا أدري لماذا. لم أكن أريد أن يفعل ذلك، كما أنني لم آخذ منه قط هدايا أو أموال.

ـ عندما ألححت على بيبري هذه الليلة، اعترف لي بأنه اخترع هذا الكلام في رسالته لكي يحملني على الحضور.

قالت ساخطة: لكنك صدقت كل كلمة. وهذا هو السبب الذي جعلك تظن أن هنري أعطاني القرطين.

ـ أما زلت تقولين إن هذا غير صحيح؟.

ـ نعم، هذا ما أقوله بالضبط.

قال بصبر كاد ينفد: ذلك لم يعد مهماً الآن، فلماذا لا تخبرينني بالحقيقة؟.

قالت بقنوط: هذه هي الحقيقة. إنني أعلم أن القرطين غير عاديين وأنهما، كما قلت أنت، ليسا من النوع الذي يشتريهما الشخص من سوق العرض على العربات، لكنني لا أفهم لماذا بعد معرفتك بكذب بيبري، ما زلت تعتقد أنهما هدية من هنري.

فتنهد: اسمعي! حتى ولو لم يقل بيبري شيئاً كهذا، إلا إنني أعلم أنهما من هنري.

ـ حسناً، أنت مخطىء. فهما ليسا منه.

ـ رغم أنهما هدية واحدة لا غير؟.

قفزت واقفة على قدميها قائلة بمرارة: رغم أنهما هدية واحدة. كما أنني لم أسرقهما.

كان اشتباهه بأنها لصة ما زال يشعرها بالألم.

ـ اسمعي. لا يهمني ما إذا كنت سرقتهما فهما رائعا الجمال، وأنا لا ألومك إذا شعرت بالإغراء . . .

www.rewity.com

ـ ما ألطف مشاعرك!

ـ أريد منك فقط أن تعترفي...

ـ ليس ثمة شيء أعترف به، فأنا لم أشعر باغراء لأخذهما. كما أنني لم أسرقهما.

نظرة واحدة إلى وجهه أخبرتها أنها تضيّع وقتها. ركعت أمامه ووضعت يداً على ركبته وهي تتوسل إليه لآخر مرة: أواه يا كين! أرجوك صدقني.

قال بصوت معذب: أريد من كل قلبي أن أصدقك. لكنني فقط لا أستطيع ذلك.

ركعت محنيّة الرأس كسائل منبوذ بدا عاجزاً مهزوماً. فقال بشيء من الخشونة: لا حاجة بك للظهور بهذا الشكل...

وسكت فجأة ثم نهض واقفاً ووضع يديه على كتفيها يطلب منها الوقوف: هيا، يبدو عليك الإرهاق البالغ. لقد حان وقت نومك. لا أظنك شفيت تماماً مما أصابك أمس من إنهاك.

قادها نحن السلم ويداه حول خصرها وكأنه يخاف عليها من الانهيار.

ـ قبل أن تستقري في سريرك، يجب أن أحضر تلك الوسائد والأغطية.

ـ الوسائد والأغطية؟ لماذا؟.

ـ أظنك تريدين أن أنام على الأريكة.

كل ما كانت تريده منه هو أن يصدقها. ولكن إذا لم تستطع إقناعه، ما عليها إلا أن تقبل العيش مع هذه النظرة منه عنها... لقد اختارت الحياة معه وليس هناك وسيلة تجعلها تغيّر رأيها الآن، أو تسمح للكرامة بأن تقف بينهما.

أجابت بهدوء: لا أريد أن تنام على الأريكة.

* * *

١٠ ـ الحب ليس ذلاً

تحركت اليزابيث ثم فتحت عينيها. كان الفجر قد بزغ، والسنونو تزقزق مبتهجة دون توقف. وهي مستلقية على ظهرها وذراع كين حولها.

قرارها بألا تدع الكرامة تقف حاجزاً بينهما قد أتى ثماره. وبذهن لا يزال خدراً راحت تتذكر ما حدث الليلة الفائتة والسعادة التي شعرت بها بين ذراعيه.

التفتت بحذر تتأمل زوجها النائم. كان نائماً على جانبه ووجهه نحوها. كانت عظام وجهه قوية، وخشونة ملامحه لا يمكن إنكارها. لكن إغماض عينيه الساخرتين واسترخاء فمه الحازم، وشعره المشعث، كل ذلك أسبغ عليه مظهر الضعف.

هذه النظرة التي ملأتها بحب عنيف وشوق لا ينتهي، يبدو أنها أزعجت نومه، ففتح عينيه.

ابتسمت له وقد امتلأ وجهها حناناً ورقة وعلى الفور برزت في عينيه نظرة طالما تمنت لو تراها فيهما، ثم ما لبثت أن تلاشت وكأنه تذكر شيئاً لا يريد أن يتذكره.

عادت وهي ترتجف إلى الواقع، وبصوت ثابت سألته: ما هي خططك لهذا اليوم؟

نهض مستنداً إلى مرفقه وقال: ما زالت لديّ خزنة هنري وبعض الدفاتر التي علي أن أنظر فيها. وهكذا بعد الإفطار أريد الذهاب إلى

www.liilas.com

سالمارش!

ـ هل معنى هذا أنك ستذهب وحدك؟

ـ معنى هذا أنه لا ضرورة لذهابك إذا لم تحبي ذلك، بمكنك دوماً البقاء هنا.

ـ بل أفضل الذهاب.

ـ حسناً جداً. . .

كان من المستحيل أن تفهم إذا كان ذلك يسره أم لا. ثم ألقت عليه السؤال الذي لا يبارح ذهنها.

ـ هل قررت ما ستفعل بالمنزل؟ قلت إنك ستبيعه!

ـ وأنت لا تريدينني أن أبيعه؟

ـ ما كان هنري ليحب ذلك.

ـ عليه إذن ان يتركه لبييري.

ـ أظنه كان يعلم أن بييري سيبيعه لا محالة. لكنني لا أظنه كان يتوقع منك ذلك.

ـ أتحاولين أن تشعريني بالذنب لفكرة بيعه؟

ـ نعم.

ـ وهل قرارك هذا صادق تماماً؟

ـ إلى حد ما.

بدا الضحك في عينيه وقد أشرق وجهه: أخبريني إذن. . هل تحبين الأكل في الفراش؟

ـ هذا يعتمد على ما إذا كنت وحدي أم لا. وماذا عنك أنت؟ هل تحب الأكل في الفراش؟

ـ جداً.

ـ وهل لدينا وقت؟

تظاهر بالتفكير: حسناً، لا تهمني العجلة في هذه الأمور.

عندما انتهت اليزابيث من ارتداء ملابسها، سرحت شعرها في

«شينيون» أنيق على قمة رأسها ووضعت حول عنقها سلسلة هنري.

رفعت بصرها فرأت كين ينظر اليها بعينين باردتين. وأخذت تفكر بحزن في أنه حتى بعد أن عادا للعيش معاً، ما زالت هناك الشكوك وعدم الثقة بدلاً من التقارب الذي تهفو إليه. . .

نظر إليها بسرعة فأخطأ معنى ما يبدو على ملامحها، فسألها: أمزيد من الأسف؟

ـ لا. .

ولما أدركت أنه لاحظ منها شيئاً من التردد، تابعت تقول: على الأقل ليس من الناحية التي تعنيها.

ـ من أي ناحية إذن؟

ـ نادمة لأننا كنا عشنا بطريقة مختلفة لو أن كل ذلك لم يحدث.

ـ أتعنين لو أنك تستطيعين إخباري بحقيقة القرطين؟ أم إذا كان بإمكاني قبول الكذبة؟

ـ لم يكن هذا ما أعنيه. أنا لا أريد أن تقبل الكذب، لكنني أريد منك أن تصدق الحقيقة.

ـ سأفعل هذا دون شك، عندما أسمعها.

عضت شفتها حتى شعرت بطعم الدم. ولأنها رأت أن ليس هناك طريقة للفوز، وصممت على ألا تتخاصم معه مرة أخرى، قالت: الأفضل ألا أتحدث عن هذا الأمر.

ـ لم لا؟

ـ لا أرى فائدة من ذلك ما دام ليس بإمكاني أن أقنعك بأنني أقول الحقيقة.

ـ إذا كنت لم تحصلي عليهما من هنري فلماذا لا تخبرينني عن مصدرهما إذن؟

قفزت واقفة: لا أدري ما الذي يضطرني إلى أن أخبرك. أريد أن تثق بي.

ـ يا ليتني أستطيع!

جمعت أطباق الطعام وأسرعت بها إلى المطبخ وقد جعلها الهياج لا

www.rewity.com

تكاد تعرف طريقها. بينما حمل هو بقية الأطباق ولحق بها.

وضعت الأطباق في الحوض بعنف، وأضافت اليها الماء الحار ومحلول الصابون وأخذت تغسلها.

بدلاً من أن يخرج، تناول المنشفة وأخذ ينشف الأواني بكفاءة جعلتها تجن ثم تنفجر غاضبة: لا أستطيع أن أفهم لِمَ أنت واثق من أن القرطين من هنري.

ـ لديّ سبب وجيه، صدقيني.

ـ أخبرني عنه إذن.

ـ هزّ رأسه: أريد أن أعرف منك مصدرهما أولاً.

وإذ رأى العناد في ملامحها، قال بلهجة لاذعة: لقد مضى وقت الألاعيب، جو. أريد أن أعلم كيف حصلت عليهما، وأريد أن أعرف الآن.

ترددت بينما الرغبة في إخباره بالحقيقة ورفض الهزيمة يتصارعان في نفسها. وأخيراً قالت: حسناً جداً. سأخبرك، تركتهما لي أمي الحقيقية.

ـ أمك الحقيقية؟

ـ إنها قصة طويلة.

ـ أرى من الأفضل أن تأتي وتجلسي.

جففت يديها ثم عادت إلى غرفة الجلوس وجلست على أريكة، بينما وقف كين متكئاً على رف المدفأة وانتظر.

أخذت تستجمع أفكارها، ثم قالت:

ـ لم أعلم بأنني ابنة بالتبنّي، إلى أن قتل والديّ، أو من كنت أظنهما والديّ في حادث الاصطدام. عند ذلك علمت أن أمي الحقيقية قد ماتت من حمى النفاس بعد ولادتي بأيام. والمرأة التي اعتبرتها دوماً أمي، كانت في الحقيقة خالتي. وكانت أمي أختها الصغرى.

ـ وماذا حدث لأبيك الأصلي؟

ـ ليس لديّ فكرة. فهمت أن أمي لم تكن متزوجة، وعندما ماتت لم

يأت أحد ليطالب بي.

ـ وهكذا تقدمت خالتك وزوجها!.

ـ نعم. . . عندما مرضت أمي اتفقا على أن من واجبهما رعايتي إذا حصل لها شيء. . .

ـ وماذا بالنسبة إلى القرطين؟

ـ تركتهما لي هدية بلوغي الواحد والعشرين، ومعهما رسالة تقول لي فيها إنهما أثمن ما تملك.

اعترض قائلاً بحدة: قلت لي إنك ما كنت تملكينهما أول معرفتي بك.

ـ هذا صحيح. في ذلك الوقت لم أكن أعلم بوجودهما.

ـ تابعي كلامك.

ـ يبدو أنهما كانا وديعة عند محامي خالتي. وفي الوقت الذي حاول فيه المحامي الاتصال بي، كانت خالتي وزوجها قد توفيا والشقة أقفلت. وبعد أن تركتك، أخذت أفتش عن فرصة عمل في إحدى الصحف، عندما وقع نظري على إعلان يقول: إذا اتصلت الآنسة «جوزيان اليزابيث ميريل» بمكتب «فيركين وجونز» للمحاماة، ستعلم شيئاً لمصلحتها. . . خفت في البداية من الاستجابة. .

وإذ رأت توتر شفتي كين، أضافت تقول: لم يكن مضى سوى وقت قصير على هربي من مخبرك الخاص، فظننت أن ذلك قد يكون فخاً. ولكنني حينذاك كنت في حاجة ماسة إلى النقود لكي أدفع أجرة النزل الذي أنام فيه. وهكذا اضطررت إلى المغامرة. . .

ـ لا بد أنك شعرت بخيبة أمل فظيعة إذ كنت بحاجة إلى نقود.

هزت رأسها: لا لم أشعر بخيبة أمل.

فقال بجفاء: القرطان يساويان مبلغاً كبيراً، لماذا لم تبيعيهما ما دمت بحاجة ماسة؟

فقالت بهدوء: ما كنت لأحلم ببيعهما. لقد تملكتني بهجة غامرة

حين علمت أنهما من أمي الحقيقية.

ـ رغم أنك لم تعرفيها قط؟

ـ ربما هذا هو السبب.

كانا تذكاراً غالياً من الماضي. هدية لا تقدر بثمن. وعندما قرأت الرسالة المرفقة بهما تملكها الحزن، حيث أنهما كانا من أثر تلك المرأة المجهولة التي ولدتها.

ـ يبدو أنه كان في نية خالتي وزوجها أن يخبراني بالحقيقة حين أبلغ الحادية والعشرين. لكن القدر تدخل طبعاً، وعلمت ذلك من الأوراق التي كانت لديهما. شعرت في البداية بالمرارة لأنهما لم يخبراني من قبل. لكي أسأل عن أمي الحقيقية، وأعرف أي نوع من النساء هي. وكيف تبدو وما إذا كنت أشبهها! لكن الأوان كان قد فات. كل ما حصلت عليه هو رسالة قصيرة مكتوبة بأصابع مرتجفة، وقرطين.

كان كين يتأملها بحذر: وهذه هي قصتك؟ ألا تريدين أن تغيريها؟

فسألته غاضبة: ولماذا أغيرها؟ إنها الحقيقة.. لا أراك تشك في أنني لفّقتها؟ لو كنت بهذه المهارة لألفت روايات.

ـ أليست هذه رواية؟

تملكها شعور هائل باليأس. لقد تسبَّب بيبري بعمل أسوأ بكثير وأكثر ضرراً مما تصورت. رفعت رأسها وقالت بهدوء: يمكنك طبعاً أن تسأل المحامي.

ـ ربما، إذا كان ما يزال يزاول العمل.

ـ لا أعرف. كان المكتب صغيراً في شارع خلفي، وقد مضى خمس سنوات تقريباً على ذلك.

ـ ما هو عنوان المكتب؟

ـ إنه في وايتشابل.

قال متحدياً: هل تريدين الذهاب للتأكد من أن المكتب ما زال موجوداً؟

ترددت، ثم قالت بحزم: نعم. أريد.

ولمّا رأى ترددها، قال ساخراً: لا يبدو عليك التفاؤل.

ردت بحدة: بل أنا كذلك.

ـ سنزور المكتب إذن قبل عودتنا إلى سالمارش.

بعد ذلك بعشر دقائق، تركا البيت وتوجها شرقاً عبر زحام لندن. كان النهار مشرقاً وبارداً.

كانا يقتربان من «وايتشابل» عندما قال كين: هل تعرفين العنوان الكامل؟

ـ لا أتذكر اسم الشارع، لكنه بعد طريق «روكوبل رود». كان هناك مقهى كبير قديم الطراز عند الزاوية، مدهون باللون الأزرق.

في منتصف «روكوبل رود» قال كين فجأة: إنه شارع «كرانتون».

قالت بلهفة: هذا صحيح. لقد تذكرته الآن. المكتب في نهايته.

سارا إلى نهاية الشارع، ثم هبط قلب إليزابيت. كان هناك متجر صغير مدهون بشكل خالٍ من الذوق وذلك في مكان المكتب.

ـ يبدو أنه هناك.

قال كين هذا بصوت غريب. وعندما نظرت إلى حيث أشار، أدركت أنها كانت تنظر إلى الجانب الخطأ من الشارع.

أوقف السيارة ثم ساعدها على النزول. كانت الكتابة السوداء والذهبية التي تؤلف اسم (مكتب فيركين وجونز للمحاماة) قد ابتدأت تتقشر قليلاً كما أحاط الإهمال بجو الترف والاحترام الذي كان يحيط ذات يوم بالمكان.

وفي الداخل، نظرت إليهما امرأة متوسطة العمر تجلس خلف مكتب قديم الطراز في الزاوية: صباح الخير. أية خدمة؟

ـ أنا وزوجي نرجو الحصول على بعض المعلومات المختصة بإرث صغير حصلت عليه منذ حوالى خمس سنوات، وكان محفوظاً هنا في انتظار عيد ميلادي الواحد والعشرين وهو باسم السيد والسيدة «كريستوفر

ميريل» أبويّ بالتبني وذلك بالنيابة عن أمي الحقيقية.

ـ واسمك حينذاك؟

ـ «جوزيان اليزابيث ميريل» وقد جئت استجابة لإعلان منكم في الصحف.

ـ أيمكنك أن تخبرني اسم المحامي الذي عالج الأمر؟

ـ السيد جونز.

ـ سأرى إن كان لديه وقت. تفضلا بالجلوس.

جلست اليزابيث بينما بقي كين واقفاً مستنداً إلى الجدار ويداه في جيبيه. نظرت إليه فأحست بتوتر يتملكه خلف مظهره الهادىء.

عادت موظفة الاستقبال تخبرهم بأن السيد جونز سيراهم. لحقا بها إلى مكتب خانق الجوّ حيث نهض لاستقبالهم رجل صغير الجسم ذو عينين زرقاوين ذكيتين.

نعم، لقد عرفته. وأخذ قلبها يخفق، لكن عقلها حدثها بأن من الصعب أن يتذكر ذلك.

ـ تفضلا بالجلوس. والآن بماذا يمكن أن أساعدكما؟

كررت اليزابيث ما سبق وقالته لموظفة الاستقبال. فتح المحامي ملفاً كان جاهزاً على مكتبه ثم نظر فيه لحظة قبل أن يسأل: يوم ميلادك هو في السابع عشر من أيلول واسم أمك الحقيقية «اليزابيث سميث»؟

قالت بلهفة: هذا صحيح.

ـ ماذا بالضبط تريدين أن تعلمي؟

قبل أن تجيب، سأله كين بصوت رجل غريب: هل لك أن تخبرني بنوع ذلك الميراث؟

ـ الوصف هنا لا يتحدث سوى عن قرطين أثريين.

ورفع بصره ثم تابع يقول: ولكن إذا لم تخني الذاكرة شكلهما غاية في الغرابة وتاريخ صنعهما يعود إلى أوائل القرن السابع عشر. وهما رائعان وقد استحوذا على اهتمامي.

سحب كين محفظته من جيبه وأخرج منها القرطين ووضعهما أمام الرجل ليفحصهما.

ـ هل يشبهان هذين؟

فحصتهما العينان الحادتان: مثلهما بالضبط

ـ شكراً...

وأعاد كين القرطين إلى محفظته ونهض واقفاً: لن نأخذ من وقتك أكثر من هذا.

أمسك بمرفق اليزابيث التي كانت مصابة بالدوار، ثم قادها نحو الباب حيث التفتت إلى المحامي توجه اليه شكراً متأخراً.

وفي السيارة التفت كين اليها قائلاً باختصار: يبدو أن عليّ أن أعتذر لك.

هزت رأسها: لا أريد اعتذاراً. أنا سعيدة فقط لأنك عرفت الحقيقة.

لكنها قالت ذلك وهي ترتجف إذ رأته بعيداً عن الشعور بالسعادة..

كان وجهه جاداً وكأن الحقيقة أحدثت اكبر صدمة غير سارة له. ثم أخلدت إلى الصمت شاعرة بالحيرة والقنوط.

ساد التوتر الأحاديث القليلة التي اضطرا اليها. كما كان يتجنب النظر إلى ناحيتها.

وعند العصر، توقفا عند مقهى طلبا فيه قهوة وشطائر لم ينهياها.

أما القسم الثاني من الرحلة فقد كان أسوأ. لقد بدا وجه كين رزيناً كئيباً كما أن نفسية اليزابيث انحدرت إلى الحضيض.

عندما وصلا إلى الساحل، كان الجزر قد بدأ واستطاع قيادة السيارة على طريق العبور. وكانت اليزابيث من الكآبة والاستياء بحيث لم تكد تفكر في عبورها التعس أسس لهذا الطريق.

وفي داخل المنزل توجه كين إلى المكتب رأساً. تبعته بعد أن علقت معطفها، فوجدته قد فتح خزنة هنري وأخذ محتوياتها ليضعها على المكتب. كان وجهه هادئاً وثمة عجلة غريبة في تحركاته. وبدا وكأنه

يشحذ همته لمواجهة كارثة على وشك الحدوث.

كان الهواء قارساً، وإذ كانت تعرف مبلغ اهتمامه براحتها، فقد تملكها العجب لأنه لم يتوقف ليشعل النار. تملكها الانزعاج بعد أن تأكدت من أن ثمة أمراً مخيفاً، وأخذت تنكش رماد المدفأة، ثم أشعلت النيران. وعندما تصاعد اللهب وضعت بعض الحطب، ثم جلست أمام النار، وأخذت تنظر إلى كين بقلب مثقل.

كان قد أفرغ الخزنة عندما أمسك بعلبة صغيرة مستطيلة الشكل، وضغط على زر فتح الغطاء. وقف لحظة، يحدق في المحتويات دون حراك، ثم وقد بدا على وجهه تعبير جمدها حتى العظم، ناولها العلبة.

وجدت نفسها تحدق في حلية مصنوعة من الفضة واللؤلؤ بشكل عروس البحر. كانت الحلية قديمة رائعة الجمال، خطفت أنفاسها ونظرت اليه دون كلام. أخرج القرطين من الحقيبة ووضعهما بجانب الحلية. ثم قال بفتور غريب: إنه طقم متلائم تماماً. ومع أنني لم أر الحلية إلا مرة واحدة من قبل، فقد كنت أعلم أنه لا مجال للخطأ.

ـ هذا إذن ما دفعك للظن بأن هنري إما أعطاني القرطين، وإما سرقتهما أنا منه.

ـ لم أجرؤ على التفكير في أي شيء آخر، ولكن عندما أكد المحامي قصتك..

ومرّ بأصابعه على عينيه، وقد بدا على وشك الانهيار ثم سألها بخشونة: أنت تفهمين معنى هذا، أليس كذلك؟

لم تجد وقتاً للتفكير فهزت رأسها نفياً.

ـ أتتذكرين ما كنت أخبرتك به عن طفولتي؟ عن فتاة تدعى «بيث» جاءت لتعيش معنا؟

وعندما أخذت تجاهد لتفهم ما يقول، تابع هو بقلب مثقل: كنت على صواب حين قلت إن هنري لم يكن يحتفظ بمفكرات بالشكل التقليدي. ولكن في اليوم السابق، اكتشفت أنه منذ شبابه، قد ملأ دفاتر

ملاحظات متوالية تحتوي على تسجيل يومي لكل ما يهمه أمره. ومن أحد هذه الدفاتر، علمت أن اسم «بيث» الكامل هو «اليزابيث سميث» وقد دعاها هنري (حبيبة عمره)... أراد أن تتزوجه لكنها رفضت وعندما اكتشف أنها حامل بطفل منه، توسل اليها أن تغيّر رأيها. وربما ألحّ عليها كثيراً، لأنها ذات يوم وكان هو في لندن، قبلتني قبلة الوداع، ثم رحلت تاركة ورقة تقول فيها لهنري إنها ابتدأت تشعر بأنها وقعت في الفخ وإنها تحبه، لكنها تريد أن تكون طليقة الروح ولا تستطيع الارتباط. لقد بذل جهده في اقتفاء أثرها، وعندما فشل في ذلك، عزى نفسه بفكرة أنها أجهضت نفسها، ولكن يبدو أنها غيرت رأيها، لأن التاريخ متلائم تماماً..

وعندما أخذت اليزابيث تحدّق إليه وقد استبد بها الرعب أضاف يقول: هنالك إمكانية قوية في أن تكوني ابنة هنري.

هتفت متلعثمة: ولكن هـ... هذا لا.. لا يمكن أن يكون.. إنه يجعلني...

فقال وقد أربد وجهه: يجعلك أختي غير الشقيقة.

وعلى الفور أخذ الدم يقرع في رأسها، ودار بها سواد أوشك أن يحتويها... لكنها تغلبت عليه بشكل ما.

ـ لا! لا أصدق أنني ابنة هنري!

ومع ذلك، فكل شيء يشير إلى أنها الحقيقة، كما أنه يفسّر أشياء كثيرة.

قال كين بلسان ثقيل: يبدو أن هنري كان يعتقد ذلك. وهذا يفسّر عطفه عليك والسبب الذي دفعه إلى أن يترك لك نصف أملاكه. وسبب اضطرابه عندما هربت، وغضبه البالغ عليّ وعلى بيري...

فقالت بلهفة: لكن هذا يفسّر شيئاً مهماً للغاية، فقد علم أننا سنتزوج. لقد أخبرته أنا بذلك. فإذا كان يظن أنني ابنته، فلماذا سمح لنا بالزواج؟ لماذا كان سروره كبيراً لهذا الزواج؟ لقد كان مسروراً جداً،

www.rewity.com
mamaria555

وأراهن بحياتي على هذا.

رفع كين رأسه وقد بدت في عينيه الكئيبتين بارقة أمل، ثم قال بصوت ملؤه الإثارة والحدة: فلنبحث عسى أن نجد في أحد هذه الدفاتر ما يلقي ضوءاً على ذلك.

اندفع إلى المكتب، ثم فتح الدرج السفلي وأخذ يخرج مختلف أكوام الدفاتر: كلها مؤرخ ومنظم والحمد لله. وهكذا سرعان ما نجد أي شيء يتصل بهذا الموضوع.

حمل بعضها إلى جانب المدفأة، ثم قدم إلى اليزابيث دفتراً سميكاً أزرق الغلاف.

ـ هذا أحد الدفاتر القديمة التي تحدث فيها عن «بيث». ربما تحبين أن تنظري فيه، أما الدفاتر الأخرى فتاريخها يعود إلى حوالي ست سنوات.

تناولته منه مرغمة، وأخذت تقرأه، بينما أخذ هو يبحث في الدفاتر الأخرى.

رفع كين رأسه أولاً، مخترقاً الصمت: حسناً، كل شيء هنا، ولكن لا شيء يمكن فهمه... إذ رغم أنه تزوج مرة أخرى، إلا أنه لم يتخل قط عن الأمل في العثور على «بيث» وطفله. وخلال سنوات كان قد أنفق ثروة في البحث عنها، ولكن دون فكرة عن المكان الذي توجهت إليه. إنها لم تذكر قط أي شيء عن حياتها أو أسرتها، كما أن الاسم «سميث» شائع. ويبدو أن أبحاثه كانت تقتفي أثاراً زائفة. ولم يجدوا ما يرشدهم أخيراً إلا بعد أن كبرت، فأخذوا يضمّون المعلومات التي عثروا عليها عن ولادتك وبالتالي عن تبنيك. وفي الوقت الذي تركت فيه الكلية، كان هنري تأكد تقريباً من أنه وجد ابنته. وهذا هو السبب الذي جعله يذهب إلى بيتر كارادين ويطلب منه أن يقدم اليك وظيفة سكرتيرة. كان يريد أن يعرفك ويتأكد تماماً قبل أن يقول شيئاً.. هل سألك عن أبويك؟

ـ نعم.

ـ وطبعاً، حيث أنك كنت تعتبرين خالتك وزوجها والديك، لم يستفد

من جوابك. وبعد تفكير طويل، قرر أن يذهب ويراهما. اعترفا بأنك متبناة، وأخبراه عن شخصية أمك الحقيقية، لكنهما طلبا إليه ألا يتفوه بكلمة لأنهما كانا يريدان أن يخبراك هما بذلك عند بلوغك سن الواحد والعشرين، وذلك بعد عدة أسابيع. وإذا بموتهما المفاجيء يجعل الفوضى تدب في كل شيء. قرر الانتظار حتى تخف صدمة فقدانك لهما وتعود الأمور إلى طبيعتها قبل أن يخبرك بأنه أبوك. وبعد ذلك بوقت قصير جئت أنا وتوالت الأحداث. والآن يأتي القسم المحيّر. كتب هنري ما يلي: «جو فتاة جميلة الخلق، وهي ابنة من النوع الذي يفخر به كل أب، وهي تشبه «بيث» كثيراً.. لها نفس التألق والبهاء. لا يكاد كين يحول نظراته عنها. كان واضحاً منذ البداية أنهما أغرما ببعضهما البعض. عندما أخبرتني جو أنهما سيتزوجان تملكني سرور بالغ، وأعترف بأنني لا أفهم الحاجة إلى السرية في هذا الأمر. ولكن الشباب يعيشون تبعاً لمفاهيمهم الخاصة، لطالما كان كين شخصاً غامضاً. عندما سمعت بالبشارة، خطر لي أن أخبر جو بأنني أبوها. ولكن أن أفاجئها بخبر كهذا قد يزعزع كيانها، وقد يستاء كين من انهيار خططه. وهكذا قررت الانتظار إلى حين عودتهما من شهر العسل فأخبرهما بالحقيقة...».

* * *

بسط كين يديه بحيرة ويأس: «لا بد أن هنري كان يدرك ما يتضمنه هذا، فأي لعبة كان يقوم بها؟ لماذا لم يمنعنا من الزواج ما دام يعلم أننا أخ وأخته؟».

تنفست اليزابيث بعمق، ثم أمسكت بالدفتر الذي كانت تقرأه، وقالت: لدي لغز آخر لك. سأبدأ من أول الصفحة فاسمع: «أخذت «بيث» القرطين اللذين أعطيتهما لها... ولكنها، إما مصادفة وإما عن سابق تصميم، تركت الحلية... إنني أحاول أن أعتقد أن هذا دليل أنها ستغير رأيها وتعود إليّ. ولكنني في نفس الوقت سأقوم باقتفاء أثرها بكل إمكانياتي. وإذا لم تعد، فسيكون بإمكاني على الأقل أن أساعدها مادياً،

أرجوك يا الله لا تدعها تجهض طفلنا. إنني متلهف إلى ولد من صلبي...».

ورفعت اليزابيث عينين متسعتين: ولكن كان لديه أنت حينذاك؟...

تسمر كين في مكانه لحظة، ثم قفز واقفاً واخذ يبحث في الدفاتر الأخرى. وعندما وجد الدفتر الذي يبغيه، فتحه وأخذ يقرأه بلهفة واضحة.

بعد أن توقف عند صفحة معينة، قال بهدوء: يبدو أن أمي كانت حاملاً في شهرها الخامس حين تزوجت هنري. لقد كانت وزوجها الشاب قد تزوجا لتوهما حين قتل في حادث على دراجته النارية. ولكن هنري منحني اسمه.. فأنا لست ولده والحمد لله.

بدا على كين الإعياء البالغ، فعاد إلى المدفأة واستلقى على كرسيه أمامها، ثم قال: يا له من اختلاط مؤسف للأمور! واللوم أغلبه يقع عليّ أنا. لو لم أكن بذلك القدر من الحماقة التي جعلتني أصدق كل ما قاله لي بيبري... لو أنني أخذت أراقبكما أنت وهنري بعينين محايدتين...

فقالت ببساطة: هناك الكثير من حرف (لو) هذا.. (لو أن هنري كشف الأمر مبكراً)... (لو أن والديّ اللذين تبنياني أخبراني بالحقيقة)... (لو أن..).

ورفع كين بصره إليها والجد في وجهه: «الشخص الوحيد الذي لا يقع عليه أي لوم هو أنت، وأنت الشخص الذي تألم أكثر من الجميع. ولا عجب إذا كرهتني...».

ـ أنا لم أكرهك قط.

ـ لقد تركتني مرتين.

ـ سبق وقلت لك إن ذلك لا يعني أنني أكرهك!

فقال ساخراً: حسناً، وبالتأكيد لم تفعلي ذلك لأنك تحبينني.

بدا لها فجأة أن من المهم جداً أن تقنعه، فقالت: أنت مخطىء. ربما هذا هو الوقت الوحيد الذي سأقول فيه هذا. ولكن، سواء صدقتني أم لا،

أنا أحبك.. ودوماً أحببتك. لكن الحب من طرف واحد مرّ ومذلّ... وهذا ما جعل بقائي معك صعباً مستحيلاً.

سألها بصوت متزن مجرد من المشاعر: وهل تنوين البقاء معي الآن؟

ـ قلت إنك ترغب بي.. وتريدني أن أبقى معك إلى أن تملّ مني.

ـ لقد غيرت رأيي فأنا لا أرغب بك، على الأقل ليس بهذه الشروط.

سألته بصوت كالثلج: بأي شروط إذن؟

ـ أريد ارتباط العمر كله. أريدك أن تحبيني وتبقي معي طوال حياتنا. كانت هذه رغبتي دوماً، ولكن لأسباب كثيرة، لم أستطع أن أقول هذا. بدا لي من الجنون البالغ أن أحب امرأة هي...

قاطعته بلهفة مفاجئة: هل تحبني؟

ـ دعوت شعوري نحوك بأسماء كثيرة، لكنني أظن كلمة حب هي الوحيدة التي تصلح في النهاية.. ولكنك لم تجيبي عن سؤالي. هل تنوين البقاء معي؟

أرادت أن تغيظه قليلاً، لكنها عندما رأت توتر شفتيه وأصابعه المتشبثة بذراعي الكرسي، وتوتر عضلات عنقه وكتفه قالت ببساطة: نعم.

ابتلع ريقه بصعوبة: إذن سنذهب غداً لشراء خاتم الزواج.

ـ لا حاجة لذلك فإن لديّ واحداً.

وفتحت العلبة الفضية الصغيرة المثبتة بالسلسلة هدية هنري إليها، ثم أخرجت خاتم زواج رائع الصنع من الذهب الأبيض وضعته على راحتها.

ـ بعد أن تركتك، أدركت أنني ما زلت ألبسه. أردت أن أعيده إليك بالبريد، لكنني لم أستطع تحمل فراقه.

قال بصوت أبحّ: وهكذا احتفظت به؟ ظننتك بعته منذ سنوات.

قدمته إليه قائلة: هل ستضعه في إصبعي؟

ركع على ركبتيه ووضعه في إصبعها ثم رفع يدها إلى شفتيه وقال بصوت مرتجف: حبيبة قلبي.

وضعت ذراعيها حوله تضم رأسه إلى صدرها، قائلة: هل تتذكر ما

www.rewity.com

دعوتني به مرة؟

ـ بهجتي، حبي، ألمي.. كنت هذا كله.

ـ وأنت رجلي.

ـ حسناً، من الآن فصاعداً يمكننا التخلص من الماضي، فقد اكتفينا ألماً. أما بالنسبة إلى الحب، والبهجة، سنستمتع بهذا كله بقية حياتنا.

ـ ونبدأ من الآن؟

ـ نبدأ من الآن.

عانقها بشوق لا قرار له. لكن اليزابيث هي التي حولت وجهها أخيراً، لتسأله: كين.. هل ستصفح عن بيبري؟

ـ وهل ستصفحين عنه أنت؟

ـ لقد صفحت عنه قبل الآن. لو لم يرسل إليك تلك الصورة التي تمثلني مع ريتشارد، لما كنا الآن هنا معاً.

ـ حسناً، إذا كنت تنظرين إلى الأمر بهذا الشكل.

ـ سعادتي البالغة تحول دون أي شعور آخر.

كانت مكافأتها عناقاً آخر. ثم سألها: هل في ذهنك شيء آخر؟

ـ إنني أتساءل.. حتى ولو عشنا في أميركا، هل ستحتفظ بمنزل سالمارش؟

ـ وكيف أحرم أولادنا من تراثهم الإنكليزي؟ بإمكاننا حتى أن نعيش هنا جزءاً من كل عام، إذا شئت.

تنهدت قائلة: أرجو أن يعلم هنري بهذا.

اشتدت ذراعا كين حولها، وقال بحزم وخدّه على شعرها: أنا واثق من أنه يعلم.

* * *